رواية

محمد زفزاف

أرصفة وجدران

رؤية

أرصفة وجدران

روايـــة

رؤية
للنشر والتوزيع
2013

عنوان الكتاب : **أرصفة وجدران (رواية)**
اسم الكاتب : **محمد زفزاف**
المدير المسؤول : **رضا عوض**
رؤية للنشر والتوزيع
القاهرة : 012/3529628
8 ش البطل أحمد عبد العزيز – عابدين
تقاطع ش شريف مع رشدي
Email: Roueya@hotmail.com
فاكس : 25754123 (202) +
هاتف : 23953150 (202) +
الإخراج الداخلي : **حسين جبيل**
جمع وتنفيذ : **القسم الفني بالدار**
الطبعة الأولى : 2013
رقم الإيداع : 2012/21883
الترقيم الدولي : 978-977-499-069-4

أرصفة وجدران

رواية

محمد زفزاف

رؤية
للنشر والتوزيع
2013

إهـــداء

إن هناك ما يشبه انتقامًا لقوى الظل من أطفال النور

شارل بودلير

1

إن العالم يبدو لي في بعض الأحيان مهترئًا. جد مهترئ. وأشعر بدخان زاكم ينبت في صدري، وينطلق إلى خياشيمي ببرود، ثم إلى الفضاء مختلطًا بظلال الأشياء وبالفراغ الكابوسي الثقيل.

كان متمددًا في العياء. وشعر للتو أنه في حاجة إلى تسلية على الأقل. كان شعوره بالاغتراب كبيرًا. هذه الجدران الأربعة التي تتضمن قدرًا من الهواء ليس بها هواء.

كل شيء جاف ولزج.

حتى أوراق الكتب الراقدة باحترام.

كجذوة حب ميت.

إن العالم مهترئ،

وقديم،

بل وعادي جدًا...

(وما أحوجه إلى تغيير!)

لو أنني أقفز هذه اللحظة ككرة مطاطية وأصفع الزمان، فأغيِّر وجهته، أو أجعله يقف لحظة ليجيب على هذا السؤال:

«لماذا هذه الحركة تتضمن العفونة والرتابة والتكرار؟».

إننى مُقَيد، وأشعر أن العالم مُقيّد كذلك وهذا الزمان وهذه الجدران الأربعة، وهذه الأوراق الجامدة..

ترى أين توجد مفاتيح هذه القيود جمعاء؟

ركل كتاباً بقدمه كان قد تعب من قراءته، ثم نهض مفككًا، «الحكيم أيسوب وسقراط. لا شيء قد تغير. إن القيم هي الأخرى قد اهتزأت باهتراء العالم»..

وبتراخ مترف، داس بعض الأوراق التي ألقاها قبل لحظة. خشخشتها كصوت قطعة خشب تحترق. كيف لهاتين القدمين الميتتين أن تستطيعا خنق صوتها؟! بحث عن حافظة نقوده ودسّها في جيب سرواله. وقبل أن يعبر عتبة الباب ارتمى

في حضن المرحاض. لقد شعر بألم في بطنه وبأنه في حاجة إلى أن يتبرز، لكن رائحة المرحاض الكريهة صدّته. إنه لم يُنظف منذ أمد. أجّل ذلك إلى أن يصل إلى أقرب مقهى. غير أنه وهو يقفل الباب وراءه أحسّ بالألم يتفاقم وأنه من غير شك لابد من التغوط.. ففعل.

وبعد لحظات داس إفريز المقهى التي يختلف إليها. الكراسي الخشبية الصلبة وجهتها للطريق. كالعادة شعر أنه يحس بالملل. لون الكراسي الأخضر الحزين انتشله من بروده. لا شيء غير كؤوس فارغة الأفواه، جائعة، تقعد فوق الطاولات. يبدو أن الجرسون هو الآخر قد احتجّ على تراكم هذا الملل.

جلس بومهدي بكسل ووجهه إلى المقهى لا إلى الطريق. كان يود أن يتمتع برؤية ذينك الرجلين الجالسين في قعر المستطيل الزجاجي. إن حركات أحدهما تبعث على الضحك. تذكّر نكتة لصديق عدمي. «لقد قدمنا ملتمسًا إلى الله لكي ينفض الأرض فيتساقط منها الأوباش، ثم يبقى الأخيار».

هذا الرجل لا يعرف بأنه خيّر أو شرير.

سئم بومهدي من النظر إليهما (إن حركاتهما سخيفة) ثم

إنه لا يسمع أحاديثهما فهو إذن لا يتسلى. بل يتضايق. وأدار وجهه إلى الطريق وصفق للجرسون بعد أن رأى الكؤوس «قهوة، قهوة من فضلك».

وشرب بإرهاق، ودخّن بإرهاق كذلك.

ثم وضع ساقًا على ساق.

وبدأ يُفرغ الألم في نظرات بعض النساء الغامضة الكسلى، الملقاة على حذائه ورأسه. مرّت إحداهن وهي تتمايل بإغراء ليس يبعث على اللذة.

قالت بعينيها تعال فلم يذهب.

(سلبته مناداتها إثبات ذاته) إنه يحب كثيرًا أن يطلبها فتمانع، ثم يطلبها فتمانع، ثم يطلبها فتمانع حتى ترتمي أخيرًا بين ذراعيه، طيّعة كالهواء أثناء التنفس.

هذه المرأة أثبتت ذاتها على حسابه ولكنه يستطيع أن يدمرها الآن «لتمض دون أن أمضي معها» وحوّل عينيه إلى النبات الذي زرعه صاحب المقهى. كان ينبت بفضول. لقد اكتشفت ذلك منذ ترددي على هذه المقهى. لطالما شعرت بأنه يتحداني، هذا النبات الجريء، إنه يتحدّاني كما تتحداني جميع الأشياء.

شعر بالمرارة في فمه فطلب كوبًا من الماء. ثم ابتلعه وهـو ينظر إلى صديق وصل لتوه.

ثم جلس، وسأله:

- هل ذهبت إلى البحر؟

- خمّن.

- إن بشرتك مملحة ومشمسة.

- نعم..

- هل رأيتها هناك؟

- لا.. الأصدقاء سألوا عنك.

- كيف كان البحر؟

- هادئًا.

- جدًا.

ثم طلب له قهوة وتركه.

- إن لدي أمرًا مهمًا. قال الصديق.

- هل الأمر أهم منّا..

ابتسم له.. وفي قرارة نفسه كان يلعنـه وهـو يودعـه. إنـه

صديق ثقيل.. في بعض الأحيان.. ثم إني لا أحس المقدرة على النفاق الآن فأضحك لنكاته المثيرة للتقـزز أو أحتمـل إطـراءه لنفسـه.

كانت فتاة، طالما راودها، تسير أمامه في الشارع.

اهتزّ للفرصة...

انطلق على الرصيف كورقة صفراء تدفعها الريح.

2

مضغ بومهدي عشاءه بسرعة وبلا شهية، فكّر في إقناع الفتاة لكي تضرب له موعدًا أبيض. أمه كانت تنعق في الغرفة المجاورة بصوتها القبيح. لعلها كانت تلعن والده كالعادة. إنها تحطم أعصابي بلا هوادة وتدوس شعوري بجهل ومرارة وقرف. إني أكرهها وأكره حتى البيت الذي يجمعني وإياها. إنها تعطف عليّ، ولكني أعتقد أنها لا تصلح لعطفي عليها. إنها لا تعجبني. لست أدري لماذا؟ يمكن أن أكون معقدًا. لكن ربما أكون صائبًا في موقفي من هذه الأمومة التي تبدو مجانية وباردة تجاه معطياتي الشعورية.

كانت لا تزال تنعق... ولذلك قرر أن ينزل إلى الشارع لا لغرض ما، ولكن مرغمًا، فقابليته للقراءة لم تعد تسعفه.

(- هل أنت خارج؟ ألا يعجبك الخروج إلا بالليل؟

قالت الأم، فردّ بعصبية:

- أيعجبك أن أبقي هنا، كل الوقت؟

- ألا يكفيك الخروج بالنهار؟

- إني لست بنتًا؟)

أكد لها ذلك بهدوء غاضب، وصفق الباب خلفه، وفي طبلة أذنه يتصارع النعيق. (إن الجو في البيت ليس مريحًا. ولذلك لا آتيه إلا بعد أن أتعب أو أجوع. فالشارع على كل حال مسل وإن كان ناسه سخفاء وجبناء ومزيفين).

قطع الطريق لكي يمتطي الرصيف الآخر. كان يود أن ينحرف يمينًا ليدخل المبولة العمومية... لم يشرب كثيرًا ولكنه يعتقد أنه يرغب في التبول. ألقى بعقب سيجارة كاد يحرق أنامله وكان قد أشعله في غير وعي. ثم قبل أن يدخل المبولة سحقه بحذائه الجلدي الأسود.

وهو يخرج، رفع رأسه إلى أعلى لكي يقرأ عناوين الأفلام التي ستعرض هذا المساء. وفكّر بوعي لماذا يعلّقون هذه

الصورة والعناوين قرب مبولة رائحتها كريهة. ثم قفز له الجواب ليس يدري من أين: لأن الناس يترددون كثيرًا على هذه المبولة، وليس هناك في الناس من لا يبول، أن تعلق هذه العناوين هنا أحسن من أن تعلق قرب كشك سجائر. فليس كل الناس يدخنون. وبفتور ابتسم. (بعض الأحيان يبتسم المرء كالأبله، ولكنه لا يعرف لماذا؟).

أدخل يده في جيبه، ثم مضى من مصباح على الطريق إلى مصباح.. ليس لديه رغبة في أن يدخل السينما. إن فيلم «امرأتان» شيء رائع. لقد قرأ القصة وروي له بعض الزملاء عن الفيلم. ولكن ليس لديه رغبة. إنه يحب مورافيا ولكنه يكره الممثلة.

وإذن فالفيلم لن يعجبه ما دامت بطلته لا تعجبه (سأكتفي بالقصة، وربما غيَّرت فكرتي عن الممثلة في المستقبل فأشاهد الفيلم. أما الآن فيمكنني أن أذهب لقضاء الأمسية عند صديقي سالم..)

داسته امرأة في الطريق بكتفها (أنت أنت وأنا وأنا. لكل حقيقته).

قال سالم:

- لماذا تطرق الباب بعنف؟

ضحك بومهدي باستهزاء:

- النيام لا يستيقظون إلا بالعنف.

- لست نائماً يا أخي.

ضحك كالغدير وقرر:

- إنني أعرفك، أنت تنام وأنت مستيقظ.

لكمه على كتفه. ودفعه إلى الداخل وهو يكاد يتفكك.

قال بومهدي:

- هل تقرأ أيضًا؟

- وماذا أستطيع أن أفعل.

قال بومهدي:

- والرسم؟ أين وصلت؟ أما تزال ترسم الريح؟

دفعه وقال:

- يا لك من معاند. إنك تستثيرني أبدًا، إنني رسّام ولكنك تنكر ذلك.

قال بومهدي:

- وأنا أيضًا سأصبح رسامًا، بل إنني رسام فعلاً.

لم يجب سالم، ولكنه نظر إليه يغضب مفتعل، وأعلن:

- سأسكتك الآن، وستقول إني رسام فحل.

وذهب ليعود بزجاجتي بيرة، وقال:

- خذ، هذا هو دواؤك. ما رأيك الآن؟ هل أنا رسام الآن؟

- أوه، أنت رسام كبير، عبقري.

وصفقا يضحكان ويضحكان.

كانا يشربان ويثرثران كعشيقين، وأمسك بومهدي بكتاب كان ملقى فوق السرير الذي جلس فوقه. كان يقلب صفحاته. بينما كان سالم منشغلاً بتنظيف المنفضة بقطعة ورق. ورفع عينيه إليه بسرعة، ثم قال:

- إنه يصلح لك.

قال بومهدي:

- هل تسخر؟

- لماذا؟ ألا تحب برنانوس؟

- لا، إني أكره هذا الملعون. لقد قرأت له «تحت شمس الشيطان»، «رسالة إلى الإنجليز» فضايقني.. ضايقني كثيرًا.

-كيف، هل ترهق كتابته؟

- لست أدري. إنه أكرهه.

ضحك سالم:

- إنك كتلة من الكراهية.

ردّ بومهدي:

- أيها النذل. إن بعض الناس لا يصلحون لغير ذلك.

- أنت متشائم.

- إني أعرفك جيدًا وأعرف كلامك.

- نحن صديقان.

ووضع المنفضة. وألقى بقطعة الورق على الأرض.

- هل لديك سيجارة؟

- لا...

وذهب سالم ليأتي بالسيجارة.

(مهما يكن فإن وجودي في غرفة سالم شيء رائع ومسل في آن واحد. إنني أحب في إزاء إنسان يستعمل إرادته بلا مبالاة فيها الكثير من الرضا والحرية. إنه لا يهتم بالمعايير التي لا تصدر عن ذاته. فهو يعتبر نفسه مركز العالم، ويعترف لنفسه كما يعترف لزملائه أنه يستطيع أن يعيش بلا حدود، وبلا مقاييس، وبلا عقبات. وسالم في مخبره طيب جدًا. وهو يتلقى الفكاهة ضاحكًا كالبحر، واللوم أو العتاب بلا مبالاة. لأنه لا

ينطلق سوى من ذاتـه. إنـه يقـرر رغباتـه بـإرادة صـادقة كـما يؤكد).

كان يدخن بفتـور وكـان سـالم يفعـل كـذلك، وأمـامهما الكأسان وقد فرغا. والزجاجتان تنتظران أن تُملآ ولكن عبثًـا. (إنه انتظار بـلا جـدوى! مـا أفظـع هـذا!) وهـو يـدس ذيـل سيجارته في المنفضة الوحيدة التي كانت تقبع بينهما، قال سالم:

- إنني على وشك أن أنهي لوحة جديدة، غـير أني أحـس بالكلل.

ومدّ يده تحت السرير وأخرج القماش ثـم فتحـه في وجـه بومهدي:

- انظر، هل تعتقد أنها ستكون شيئاً رائعًا؟

- أوه، يا للروعة! أغوار نقولا دوستال.

- نقولا دوستال؟

- تمامًا... أخشى عليك الانتحار، لقد كان يرسم موتـه. ما أفظع ذلك!

- ألا ترى أنها نغمة من نغمات براك؟

- لست أدري، ولكن....

- إنها ستكون رائعة، ستكتشف ذلك إذا انتهيت منها.

وهو يدس قطعة القماش تحت السرير، أضاف بصوت مخنوق:

- سأكملها بعد عطلتي السنوية.

قال بومهدي:

- لقد كدت أنسى عطلتك.

وهو يحاول النهوض سمع سالم يقرر بجد:

- سأمضي بعد يومين أو ثلاثة.

قال وهو يضحك:

- ستجدني أبًا لطفل أو لطفلة.

- ما أبشع ذلك، خصوصًا مع عاهرة!

خيالات منتشرة في الليل:

ترك سالم ممددًا على سريره وخيول النوم تجر العربات على جفنيه وتدهس جسده بمونوتونية. وارتمى على الرصيف يجرّ حملاً من العياء ماسكاً به من رقبته. البرد والظلام المصطخب كعاطفة جيّاشة كانا يحطّان فوقه. تخيل أنه شجرة من أشجار الساج التي نصبتها دار البلدية على طول هذه الطريق. وتخيل الليل يقفز فوقه وصبي شقي يهشم رأسه محاولاً أن يصطاد عصفورًا بئيسًا.

كان يرتمي على الطريق بخطوات تجرّ تاريخًا من الأحـزان والتعاسة، وفي السماء كانت النجوم تضج....

اجتاز القنطرة التي يمر فوقها الطريق الرئيسي وتمتد تحتها سكة القطار. منذ غادر غرفة سالم لم يصادف أحـدًا ولم يـسمع نأمة. كان يبحلق بلا رغبـة في سـيارة للـشرطة مرابطـة قـرب مقهى مغلق تبينها بسهولة رغـم الظـلام الـذي كـان يـدوس منطقتها.

صاح به شرطي أن قفْ:

- هويتك؟

قال الشرطي ذلك مرتاحًا وبلا غضب. فمـدّ بـو مهـدي يده إلى جيبه وأخرج ورقة التعريف.

قال وهو ينظر إليها في يده، ثم وهو يتناولها منه:

- ألا يعجبك الخروج إلا في هذا الوقت؟

(هذا سؤال طرحته أمي عليّ من قبلك) قال له:

- هل هناك شيء يقتضي ألا أخرج؟

- طبعاً.

وهو يخرج سيجارة من جيبه، قال الشرطي:

- ألست مغربيًا؟

- أوه...

- كأنك لا تحس بالعالم من حولك.

(إني لا أحسّه طبعًا) أكد بومهدي:

- إن المرء لا يهتم بعض الأحيان...

ناوله ورقة التعريف وهو ينفث الدخان في وجهه:

- ادخل سريعاً وإلا نمت في المركز على البصاق.

شكره ومضى. وتذكر أن هذا ليس سوى صدى لحادثة ما. نحن مراقبون إذن. والتجول ممنوع حتى لدينا هنا. انحرف يمينًا.

كان الشارع خاليًا. ثم وقف يلتفت. رأى سيارة الشرطة تمرق من الشارع الآخر هناك. (أنا لا أريد أن أنام في المركز على البصاق). وجذب نَفَساً باردًا من هواء الليل.

(أيعجبك هذا، أن توقظنا في منتصف الليل).

كانت أمه هي التي تتكلم، بينما ارتمى هو على السرير مكدودًا، وأحسّ بشيء تحته لم يكن سوى كتاب. ألقاه على الأرض: فأحدث فرقعة. وهو يتمطط على السرير انتابته رغبة في أن ينام.

3

على الرصيف المقابل صبيتان صغيرتان تفرغان الضحك الوادع في الجو. عيناهما تبرقان بفضول وبساطة، ويداهما تنبشان الفضاء بانشراح. كانت إحداهما ترتدي روبًا أحمر والأخرى أسود، وشعر إحداهما أسود والآخر مائل إلى الشقرة قليلاً. عين بو مهدي عليهما. وانقطع سيل السيارات المنسابة بنواح كسائل على الطريق المسفلتة. فعبرها بخطوات قافزة وعيناه ترقصان يمينًا وشمالاً. عندما وضع قدميه على الرصيف كاد أن ينزلق فتصلب جذعه كسنديانة عتيدة. وكانت الصبيتان لا تزالان تنطان. داس ضحكهما وانطلق يعانق درجات العمارة بحبور وشوق – طق – طق (وانتظر) –

طق – طق – يبدو أن سالم خرج هذا الصباح. الباب الصامد يقول ذلك بوقار.

انحدر مع درجات سلم العمارة وهو يعبث بسلسلة مدلاة من عنقه نقش في آخرها حصان. أكد لنفسه أن ربما يكون سالم عند صاحب المتجر المجاور. وحمله هذا الحذر إلى المتجر. كان صاحبه البربري الوافد من الجنوب مشغولاً بتنظيف بعض السكاكين، ويمسح يديه في بلوزته الزرقاء. لم يشعر به لأول وهلة. كان ظهره إلى الباب. وعندما عبث بزجاجتي حليب فارغتين كانتا في صندوق فارغ إلا منهما، التفت إليه وعلى وجهه لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

– أوه.. أنت هناك.

قال ذلك، وخرخر بضحكة اعتباطية، واستمر يمسح يديه.

– ألم تر سالم؟

– يمكن أنه سافر.

– لا ليس الآن. لقد قال إنه سيسافر يوم الأربعاء.

وفرك البربري جبهته. ثم تجشأ هذه الحروف:

– أنت متأكد؟ لقد سوّى معي الحساب أمس.

- أنا متأكد، إنه لم يسافر بعد.

ودار على نفسه:

- هات مشروبًا باردًا. سأنتظره قليلاً هنا.

وانطلق البربري إلى الداخل كالسنجاب. وأخرج بيرة زجاجتها منداة.

- هذا يصلح لك، شراب حلال وبارد. ابتسم بو مهدي وهو يجلس على صندوق فارغ أُعدّ للجلوس، فأخرج البربري الأهتم بسمة لا تعني شيئًا على الإطلاق.

كان يكرع المشروب وهو ينظر من خلال الباب إلى الإسبانية العجوز التي تثرثر مع صبية متسخة، يبدو أنها خادمتها. لم يكن يسمع شيئًا. ولكن حركاتها كانت تدل على أن هناك سوء تفاهم بينهما. فالعجوز كانت تتحرك بصعوبة وبنرفزة. وترفع يديها إلى أعلى راسمة دوائر وأنصاف دوائر في الهواء. ثم انفصلتا بآلية. واختفتا من أمام عينيه. كان البربري لحظتها يضحك مع امرأة جميلة عبرت من أمام بو مهدي ولم يعرها كامل انتباهه. وإذ التفت إليهما وجده ممسكًا بها من خصرها. يا للمفارقات! هل يستحق هذا الأهتم أن يلامس هذه الخوخة الناضجة. يا للمفارقات قالت:

- كفى أيها الوسخ.

- سأفعل يا نقاوة الدنيا.

وهي تنظر إلى بو مهدي بطرف عينها اليسرى.

قالت:

- إنك نذل.

ومضت وهي تكتل الشهوة في أعصابها وتخنقها. لقد شعر بالدم يفور كتنور. يا له من جسم يستحق أن يُعرى تمامًا ويُداس في ليلة عاصفة وتنتف شعره ريح هو جاء سادية.

قال البربري:

- ألا تخجل؟ من تكون هذه الكتلة؟

- زوجة شرطي مغفل سكن في العمارة المجاورة.

- هل...

- طبعاً.

تمنى لحظتها لو أن له متجرًا. وأنزل اللعنات مجانًا وهو يقف.

وقبل أن يمضي إلى غرفة سالم، نفح البربري ثمن بيرته. وعندما انعطف شمالاً ألفى المرأة الحلوة ذات الشعر الشلالي الأسود تُحادث سجّانًا ذاهب للعمل. كانت وقفتها وجدها

يدعوان الدماء إلى السطح.

قفز الدرجات بنشاط وطرق الباب. فأتاه سعال حاد اختلط في أذنيه بصوت كعب امرأة في الطابق الموالي. وفتح سالم وهو ما يزال يسعل.

- ما لك يا أخي تكاد تموت؟

قال بو مهدي.

استمر سالم في السعال، ولم يتبينه كثيرًا فدفعه ودخل:

- لقد زرتك قبل نصف ساعة فلم أجدك. أين كنت؟

- نائمًا.

- هل أفطرت؟

- نعم .

- ألم تزر أمك؟

(أمه مشلولة تتعفن في دهليز مظلم عند أبيه)

- لا...

- هل تنوي زيارتها؟

- نعم...

- متى؟

- قبل السفر طبعاً.

وذهب ليغير ملابسه.

- هل ستخرج؟

- انتظرني.

(ما أشقاك يا سالم. أمك تتعفن وأنت هنا تتعفن في الأوساخ واللاتنظيم. تعتقد أن الشرب والعاهرات والرسم شفاؤك. أبدًا لا. أبوك يعيش لذاته. ويبول على أمك في الدهليز. وأنت هنا تحاول أن تنسى. أف. هل تعتقد أن المسألة مسألة نسيان؟ إنها أسطورة قديمة هذه التي تعيشها. أمك ينخر الدود رئتها وأبوك شاب جسمه أسلم من جسمك. إني أراهن على أنه يستطيع أن يجعل زوجتك - لو تزوجت - تحبه وتفضله عليك. إنه شاب وأنت عجوز).

- ما رأيك في هذه الربطة؟ هل أُغيرها. تأملها بو مهدي في يد زميله مليًا.

- لا تغيرها. إنها تلائم سحنتك ولباسك.

- ستذهب معي الآن إلى وكالة السفر بالباخرة.

- ألم تعرف البرنامج بعد؟

- لا.. ولم آخذ لي تذكرة؟

- وانطلقا يعبران الحي الأوروبي. كانت جدران الخواء تنتصب أمامهما في كل خطوة. كان سالم يبدو منفعلاً جدًا، ويتحدث بتأثر بالغ عن فراقه المؤقت لصديقه. ويؤكد له بثقة لا تقبل الاحتمال أنه يرغب في الإطلاع على أشياء جديدة.

كانا يضحكان الآن لأن بو مهدي قال شيئًا طريفًا، وكانا يهدمان جدران الخواء.

خطواتهما تنثال كخطوات جنديين: ولما لاحت لهما الساعة العمومية المشرئبة برأسها المسدس في مفترق طريقين رئيسيين أكد أحدهما للآخر:

- لقد بلغنا الوكالة.

- نعم.

وبعد أن دعكس سالم أنفه أضاف:

- هل تدخل معي أم تنتظرني؟

قال بو مهدي (وكان أحد ماسحي الأحذية قد ارتمى عند قدميه مثل جرو):

- سأنتظرك.

وألقى بقدميه إلى الصبي الصغير يدهنهما بخفة وجهد. وهو يشعل سيجارة، كان يراقب سالم من خلف زجاج

الوكالة الأمامي. وأحسّ أن الصبي قد توقف عن عمله، فاستلفت انتباهه إليه. وقال أخيرًا:

- سيجارة من فضلك.

وبلا شعور ناوله واحدة دون أن يُكلّف نفسه إشعالها له. ومرّت امرأة من أمامه. امرأة مرقت من باب الوكالة. كان حذاؤها ذو الكعبين ينقر نقرًا خفيفًا على الأرض المبلطة. وكانت حقيبة يدها تستجيب لهذا الواقع فتتمايل بلا انتظام. وكان شعرها الأشقر معقوفًا في شكل ذيل حصان صغير.

وطقطق الصبي على صندوقته السوداء الصغيرة ففهم بو مهدي ما تعنيه العادة. فناوله فرنكات ولم يلحق بسالم. بل لبث يتمشي تحت ظل جدران إلى أن خرج سالم. كان يتكلم مع المرأة التي رآها بو مهدي قبل لحظة. وكانت تقهقه بإغراء، وتفتعل الحركات بينما سالم الحزين يبتسم بكلفة ويرجو الفكاك. ويبدو أنه لم يشأ أن يقدمها لزميله. ومضت في الطريق الأمامي حتى بلغت سيارة لم تكن فخمة، ولكن منظرها يبعث على الارتياح. لونها الأسود الجنائزي كان يبعث على الارتياح.

- أية دجاجة هذه أيها الثعلب؟

- لا شيء، امرأة ساذجة كانت جارتي سابقًا.

- يبدو أن الثعلب نتف الريش.

- بل ومصمص العظام.

وضحكا.

- متزوجة؟

- طبعاً. ثلاثة أطفال ورجل مطافئ.

- هل تذكر يا سالم صديقنا القديم الذي أخذته امرأة في علم من زوجها إلى أمريكا؟

- طبعا.. وكانت في الأربعين.

كانا يتحدثان عن وباء اعتيادي في نظر بو مهدي بكثير من الفضول: الجنس. وانتقلا بعد ذلك إلى الحديث عن السفر. فأكد له سالم أنه سيسافر غدًا. أما هو فأكد لزميله أنه سيجيء لتوديعه في الميناء برفقة صالح وعبد الرحمن (الصديقين في العمل، واللذين يعرفهما سالم جيدًا). وكانت الشمس إذ ذاك قد استوت في قبة السماء وقد أطلقت خيوطها العمودية على الرؤوس المحروقة ولم يبقَ أمامهما إلا أن يقولا: إلى الغد. فقد أحسّ أحدهما بأن بطنه توجعه، وأنه في حاجة إلى أن يمتلئ كبرميل فارغ.

4

(لقد ترك سالم بعد سفره الفراغ الأجوف في يدي أدعكه، والبلاهة في فمي أمضغها. ذلك لأنه صديق تتعرى ذاته أمامي بوضوح، ويجعلني أفعل ذلك بوضوح أكثر. وباختصار إننا نتفاهم ونلتقي في التجريد والمحسوس بالسهولة التي تتعرى بها أيضاً. حقًا إننا سنستمر، أنا وصالح، وعبد الرحمن في علاقاتنا. ولكن هذه العلاقة ستكون على قسط كبير من الجفاف. لأن صديقنا البوهيمي الآخر سافر. وسنفتقده طيلة إجازته).

هذا ما فكر به بو مهدي. وقد أكد له صالح، وهما يودعان سالم قبل يومين أنهما لن يلتذا في لقاءاتهما، كما أن بو

مهدي أكد له بدوره صحة رأيه، وأنه إن شاء هـو الآخـر، أي صالح، أن يهتم بأطفاله وزوجته إلى أن يعـود سـالم فـلا ضـير عليه. غير أنه قال مختنقًا:

- يا لك من وقح!

ثم أضاف بعد قهقهة:

- وهل البطة تستطيع أن تهملني حتى يعـود؟ ألا تعتقـد أنها سوف تتهمني بالذهاب مع امرأة أخرى؟

قال بو مهدي من خلال تجشؤ سريع:

- إذا ترددت على الغرفة فسأجلعها تنساك.

- إنك لن تستطيع.

وحقاً إنه يستطيع (ليس هناك امرأة مخلصة. فرغم أني أعرف بطنه السمينة، ورغم أنه لم يسبق لي أن رأيتها مع رجـل آخر، سوى زوجها طبعًا، رغم كل هذا: كنت متيقنًا أنني لـو انتهكـت حرمـة صـديقي صـالح وغازلتهـا لوقعـت عـلى خيشومها أمـامي وعلقـت عجيزتهـا في الـسقف). ولأنـه لا يرغب في ذلك، فقد قال لصالح:

- حقاً إنها مخلصة لك أكثر من إخلاصها لزوجها.

- بل أخلص من عشيقتك لك.

(طبعاً، بل أخلص من عشيقي لي. أعرف ذلك جيدًا. وأعرف المرأة كثيرًا كما أعرف الرجل. فبقدر إخلاصك لزوجتك وبقدر إخلاص عشيقتك لزوجها، بقدر إخلاص عشيقتي لي).

لم تكن لبو مهدي عشيقة كما هو المفهوم. ولكنها صديقة مرّت من هناك، وأحسّت أنها في حاجة إلى أن تمر من هنا. تشتغل مدرّسة في مدرسة ابتدائية. وقد طلّقها زوجها لسلوكها، أي لأنها كانت عاهرة. وقد سقطت عليه كالمطر بالصدفة. كان يعرفها سابقًا. ولم يكن يجد الشجاعة الكافية ليجعلها تعشقه. وطاردها مرة في الطريق فتعثر قلبها أخيرًا ولم يجد من يسنده سوى هو الذي طاردها بعينيه باستمرار وبشهوانيته الغابية (وحملتها يومها على محفة من الريش الناعم إلى غرفة سالم،

وعوّدتها المجيء إلى هناك.

وعوّدتني الاتصال الدافيء الحالم.

ولم نفترق).

ولقد أحسّ لحظتها أن الفتنة قابلة للامتلاك، لقد علمته هذه الصديقة ذلك. كان جسمها المعتدل القوام حافزًا من حوافز التسامي عن واقعه. لم يكن يستيقظ ولم تكن تستيقظ.

وكان العالم ولا يزال يساوي صفرًا مستديرًا. إذ اعتقد أنه عثر مؤخرًا على جسم طالما أتاه في الخيال. وطالما زحف على صدره كزوابع عنيفة في المنام. وكانت هي تؤكد له بحرية أنه أب لطفلها قبل أن يزرع أبوه ثمرته، وكانت تعلن بأنها أحبته سنوات قبل اللقاء. ولم يكن ليصدق ذلك إلا في الفراش (لحظتها كنت أعرف أن هذا الفناء يرجع طعمه العتيق كخمرة دنّ منسي، إلى سنوات حب غابرة).

علّمته كيف يرفض القراءة. لقد تشوشت القيم إذ ذاك في خاطره، فلم يعد يستطيع أن يميز شيئًا. فقط كان يشعر أن العالم بدأ ينمو كسرطان. ولما نما انزاحت قشرته، وخرجت رائحته النتنة تزكم الفضاء والهواء (إنها لم تستطع أن تفعل شيئًا من أجلي، هذه المرأة الخبيثة، لكنها استطاعت أن تؤكد لي لا جدوى المبادرة في عالم جبان، تفرض الأوهام فيه وجودها على عقولنا. كما أنها استطاعت – وهذا ما أعرف به بصراحة – أن تجعلني أهرب إلى النسيان، إذ كنت قد بدأت أشعرت أني طفل وُلد من جديد. وبدأت أجعل الأشياء تنطق عبثاً بما تعنيه. لقد سقطت على عتبات الحمق. وسررت قليلاً عندما وجدت إنسانًا يستطيع أن يقتلني جنسيًا. أو على الأقل ينسيني. لأن صداقاتي كانت جد محدودة).

وحاولت هي أن تمددها. لأنها امرأة ركبت على ظهور الرجال، واستطاعت أن تضع اللجام في فمه، في انتظار أن تركب.

وإذ التقى بها، كان قد بدأ يتململ. لأنه عالمه الحزين لم يطق اللقاء لأول وهلة.

كانت هذه المعلمة السمراء نقطة انطلاق له. وكان هو كذلك بالنسبة إليها، كما تؤكد. لقد استطاع، كما استطاعت هي الأخرى، أن يهدما هذا التاريخ الذي مضى قبل أن يلتقيا. ومن جانبه هو، فقد جرف أحزانه إلى هاوية واسعة بما فيه الكفاية – كان يعتقد ذلك.

5

لم يذهب بو مهدي إلى الكلية هذا اليوم. ولأنه لا يسكن العاصمة، والكلية توجد في العاصمة، فإنه يضطر في بعض الأحيان إلى عدم الذهاب للاستماع للمحاضرات، ويكتفي بأن ينقل المذكرات.

(كنت وحيدًا في غرفتي كالعادة. وخيمة الألم مشدودة أوتادها في رأسي، في مكان ما من جمجمتي. إن التفكير الكثير يبعث الألم والقلق والاضطراب. وعلى جدران غرفتي تلك البلادة ما تزال، وذلك العناد ما يزال. إن طلاء هذه الجدران يبدو لي في بعض اللحظات كلسًا يتجمد بحديدية على قلبي.

وفي بعض الأحيان تنتابني خواطر غريبة. أن أعض هذا الجدار مثلاً بأسناني. أن أحكه بأظفاري حتى النهاية.

آه! يا للآلام ويا للفراغ!

أليس هناك في العالم شيء غير القراءة؟

حقاً إنها عالم غريب. ولكننا في بعض الأحايين نعيش الغرابة والاغتراب في الواقع).

طالما كان يشعر بثورات مريرة كالتي تصطف الآن على ضلوع قلبه المخشبة. يثور على كل شيء، على هذه الغرفة، على الرفاق الضائعين المعقدين. على الكتب، وحتى على أمه التي تصيح. يثور على صوتها. على معاملاتها. وعلى منظر وجهها الشبيه بلحاء شجرة بلوط. وهناك في أحيان أخرى يستطيع أن يتسلى بالراديو. (إن الاستماع إلى الموسيقى في بعض اللحظات يكون صلاة حقيقية تطهر من كثير من الآثام التي تحملني مسئوليتها قوى خارجية لا شأن لي بها). ولطالما ردّد مع نفسه: إن الموسيقى هي سلاح الأعزل الذي يواجه العالم بفرديته ووحدويته. إنه على كل حال يقاوم بعض الضغوط بطريقة ما. وهذا ما يحدث، إنه يقاوم ويقاوم، ويجد نفسه في النهاية منتصرًا، متمثلاً هذا المسح الكبير الذي تفعله في صدره المتعفن الهواء أغنية أو لحن.

كان بو مهدي قد انتهى من تناول غدائه للتو. وكان منبطحًا كشجرة مقطوعة. يرشف الشاي بتلذذ وتفكير. وخلف النافذة كانت السماء قطعة هندسية جوفاء. وفي قعرها كمشة من السحاب تتحرك بحرية، وتزحف لتختفي، كان الشاي ساخنًا.

(- لا شك أنها عادت من السفر قبل يومين).

(- يمكنني أن أذهب لزيارتها في الغد).

النافذة قطع من الزجاج والخشب الذي يغلفه طلاء أخضر.

(- إن اللون الأخضر مبعث الآلام في نفسي، إنني لا أنفتح له على الإطلاق. لو أنني أُغير هذا اللون بلون آخر. إن صديقتي التي أنقذتني وأنقذتها - كما تدّعي - تنتظرني من غير شك في لهفة ورغبة وإلحاح، الحب شيء ضروري.

فمن غير الحب لا نستطيع أن نفعل شيئًا ذا بال.

تلك حكمة قديمة).

لقد برد الشاي. لقد بردت الكأس، هل يحبها أم لا؟ لا يدري. لكنه يعرف أنه يشتهيها كثيرًا. وكانت أمة تصرخ في الجزء الآخر من البيت.

6

كانـا يركبـان دراجـة نارية متجهين إلى البحـر، حيث الأشياء تعيش في الضجيج الأبدي. كان الهواء رطبًا، وكانت الدراجة تقفز بهما فوق الطريق المؤدية إلى خارج المدينة. الطريق حمراء. تصاعد التراب من جانبيها ثم صبغ وجهها بحمرة تتجه نحو الدكنة. الأشجار تنبت بفوضى وبلا نظام. هنا وهناك زرب من الصبير وأشواك العليق. وغابة في طور النمو غُرِسَت أشجارها الصغيرة مؤخرًا، وخلف الخندق الذي يوازي الطريق تمتد أسلاك شائكة مكهربة تحمى مخازن الأسلحة. كانت الطريق ترتمي إلى الخلف بسرعة. وهما لا يتكلمان، فالسرعة والريح تمنعانهما من الكلام. وعندما كانا

ينحدران بسرعة جنونية خرقاء أصبح من المؤكد أنهما بلغا المقهى. كان صديقه إذ ذاك قد ألقى إليه بعبارة لم يسمعها لأن الريح كانت تسد أذنيه. وقال بو مهدي له بأنه لا يسمع شيئًا.

قال صديقه وهو ينزل عن الدراجة بعده:

- من الأحسن أن تقضي ظهر اليوم هنا. في السينما.. ليس هناك شيء جديد.

ومط شفته وحرّك رأسه وهو يصعد درجات سلم المقهى. قال:

- نجلس في الداخل أم على الإفريز.

وكان الصديق مشغولاً بربط دراجته. وهزّ رأسه:

- اختر مكانًا مناسبًا.

ومضى بو مهدي يقفز كالسنجاب فوق الدرجات.

كانت إحدى عشرة درجة تآكلت حتى أصبحت كبعض آثار رومانية أو فرعونية قديمة. إن هذه جزء من البناء القديم الذي كان سابقًا قصرًا لأحد الملوك. وكانت تقع في أسفل البناء، وتنبت بعيدًا عنها قليلاً، أشجار قصيرة، ونباتات أخرى كثيفة. وبعيدًا جدًا عن الكراسي الخشبية كان كلب أسود يرابط دائمًا هناك.

اختار بو مهدي كرسيين قابعين تحت نافذة المقهى. ومضى إليهما بينما لحق به صديقه. كان ينزع قفازيه وهو يقول:

- ماذا تشرب؟

ولم يكن يعرف ماذا سيشرب، ثم أكد له أن عليه أن يمهله. غير أنه في الأخير وافقه على شرب قهوة سريعة.

جاءتهما الإيطالية العجوز صاحبة المقهي. كانت قصيرة الجسم وكفا يديها كبيرتين. كانت ترحب بهما بفرنسية رطنة. وكان نطاقها الذي يستر نصف جسمها الأسفل مبتلاً. كان صديق بو مهدي يداعبها. وبعد أن انصرفت، قال له:

- إن الجو معتدل.

وكان الجو معتدلاً، والهواء نسيماً عليلاً ولطيفًا. وتحت أقدامهما هناك، وعلى بعد عدة أمتار، كان البحر يستقبل النهر، والأمواج تعول لتموت في النهاية على الصخور الصلبة.

هناك عملية انتحار كانت تتم بتكرار وملل أمام أعينهما واستغرقهما تأمل مستفيض (العالم يتكون من التراب والماء) وأشعل صديقه سيجارتين إحداهما لبو مهدي والأخرى له.

السماء والبحر يلتقيان عند الأفق.

الصخور تنغرز بعصبية في الماء.

الأمواج عبثًا تريد أن ترفضها.

الزبد أبيض كاللبن.

المراكب الهرمة تمتد في الوحل في نهاية النهر.

الطحالب خضراء هناك بينما الغابة الكثيفة القصيرة الأشجار تفصل البحر عن المقهى.

وكان الصديق ينظر إلى صيادين يصعدون وهم يقهقهون.

وقال له في الأخير:

-لماذا نبقي صامتين؟

-ماذا نقول؟

- أي شيء. انظر هؤلاء الصيادين.

- إنهم مسرورون. يبدو ذلك من تصرفاتهم.

كان يلوك الدخان، ويضغطه في صدره، ويحاول عبثًا أن يمضغه بأسنانه.

في الضفة الأخرى من النهر، كانت هضاب رملية ترتفع، وفي قمتها نبتت نباتات خضراء. وفي بطن الهضاب تلوح بعض خيام الصيادين. كان الصخب قد بدأ ينبعث من قلب المقهى. ضحكة رنانة انزلقت من النافذة وسقطت في أذن بو مهدي كحجرة في بركة ماء. وكان الهواء لطيفًا وقد بدأ يستعيد حيويته. كانت عينا الصديق تتوهان. ولم يكن بومهدي يدري ما الذي يقف عائقاً بينهما عن الحديث. هناك سور من الجليد يتمطط في أشيائهما: في خارجها وفي داخلها.

الصمت تمثال رهيب من الذي نحته؟

الصمت والجليد عالمان مغثيان.

لكنهما عالمان يبعثان على التفكير.

اللحظات تقتتل بلا هوادة في دنيا الجليد والصمت.

أنا أساوي صفرًا في هذا العالم. ربما صديقي يساوي شيئًا أكثر بينه وبين نفسه، لكنني متيقن أنه يعيش الخواء وأنه يساوي صفراً، وأن قدميه مكبلتان بكتل صقيعية سوداء كالظلام البارد في جوف دهاليز لا منتهية.

قال بو مهدي في النهاية:

- انظر هذا العالم الفسيح.

- أي نعم.

كان يرشف رالقهوة وقد اتجهت سخونتها نحو البرودة.

كان الصديق يدخن بعنجهية.

كان الدخان يتصاعد بليونة والسقف يضغطه أخيرًا فيتلاشى. الشمس تنزلق في منحدر إلى نقطة البحر.

وفي صفحة السماء الزرقاء المنبسطة كإزار كانت طائرة ضخمة تئز وتهدر، وتحت على الأرض في بطن الهضاب الخيام

الهزيلة تختبئ من البرد والبحر والسماء. هناك نقط آدمية تتحرك على الضفة الأخرى من النهر. النهر أصفر. نصفه أصفر ونصفه أزرق.

كان رجل وامرأته يصعدان وهما ملتصقان إلى المقهى. عينا الرجل سقطت على الصديق الذاهب في التأمل الذهولي. ولم تكن المرأة جميلة ولا مثيرة بعكس الرجل الذي كان وسيمًا. وكانت تحبه. لا شك في ذلك بتاتًا.

كانت تمسح عن كتفيه شيئًا بيديها وهي تظهر محبتها.

مرّت الإيطالية العجوز وحذاؤها لا يُحدث أي صوت في صدامه مع الإسلفت.

الهواء رطب وناعم كالفرو. الضحكات لا تزال تتوالى من داخل المقهى والصديق يشتهي المرأة التي قرب الرجل.

الدخان يتصاعد إلى السماء ويخرج من فمه كأنه يخرج من مدخنة أفقية أثناء الحديث. وعلى الجدار اتكأ بو مهدي وهو يغير وضعه. الحذاء في قدميه كالجليد. وكانت الإيطالية تعبر وفي صينيتها الصغيرة زجاجتا بيرة. الرجل كان يسعل بفتور، والمرأة تزحزح الكرسي إلى الأمام قليلاً.

الشمس أخذت تؤذن بالغروب، والبحر لا يمسك من لجام العنف، ومركب أخير يضج في لسان النهر.

7

الأرض حجرية صلبة. وحتى المطرقة فلن يكون لها صدى. فكيف بالحذاء. هناك صوت تُحدثه الأقدام بالساحة الحجرية، ولكنه باهت: خشششش.

بمقرّ الطلبة هناك تحت الرواق المنسي، ترتفع أيديهم وتتمايل أجسامهم. وفتاة تكاد أن تطير. النباتات وسط الساحة لا يحركها الهواء. إنها نباتات مخشبة واقفة بصلابة كالسفافيد، وهي كثيفة ومزدحمة. تشكل مستطيلين متوازنين بينهما ممر حجري صلب لا يسمع للأقدام فوق وقع. هناك صوت. ولكنه باهت.

المرحاض قرب مكاتب الإدارة. وباب المرحاض مفتوح

على النباتات. لا شك أن الموظفين والموظفات قد استاءوا من هذا النظام الهندسي: وأنهم قد لعنوا المهندس الذي صمم الكلية.

كان يجلس على حافة نافذة أحد المكاتب، وكان يراقب العالم وهو يتكون ببطء. و، وهو يتحلل ببطء. لم يكن يعرف تمامًا. قطع من اللحم والدم مليئة بالوجدانات، تغضب وتكره وتحب وتقتتل وفي النهاية فهي تأمل أو ترفض.

كانت الشمس تندلق على صدره وعلى وجهه «أي حمّام دافئ وناعم!». عيناه ترفضان الأشعة التي تود ألا تنغرز فيهما. هناك تحد، ولكن هناك ما يقابله – رد فعل بسيط ولكنه قوي – وكان يستعين بكفه، ليدفع الشمس وغلواءها. كان حديث هامس يدور بالقرب منه. فتى وفتاة مشوهان «يبدو أنهما بحثا عن بعضهما». كان الفتى مدفوع الجبهة بشكل مثير للانتباه بينما التجاعيد كانت قد تراكمت على سحنة وجهها التاريخي العتيق وأطلقت شعرها الأسود المصبوغ بمادة كيماوية. وفي حين كان هو يتكلم بتذلل، كانت هي تحاول أن تجيبه باستخذاء تام.

لم يكن بو مهدي يعرف فيما يتحدثان. والظاهر أنهما يعوضان هذا النقص الذي يحسانه. ولكنه اعتقد أنهما لن ينجحا. فالسالب لا يقابله سوى الموجب. أما موجب

وموجب، أو سالب وسالب، فلا أعتقد أن هناك نتيجة.

العالم رديء، وهو مع ذلك لا يستطيع أن يتحمل شيئين رديئين يتآمران عليه.

كانت الشمس تدق رأس الفتى بينما هزّ عينيه وكفّ عن الكلام، في الوقت الذي كانت تسبح فيه هي، في موجة من الغليان الغاضب. وكانت قد جمعت بعض أوراقها، وانطلقت تعبر الرواق الثاني في اتجاه المقصف، فتبعها.

أحسّ بو مهدي أنه في حاجة إلى أن يتحرك. أن يجلس وقتًا طويلاً هكذا على حافة النافذة، شيء غير مريح. ومدّ ذراعه بحيث أصبحت تكوّن خطاً هندسيًا مائلاً. وجذب محفظته الجلدية السوداء المرمية في الزاوية. وبقفزة خفيفة ارتمى على الأرض.

كان يحسّ أن وتدًا طويلاً ينمو في نصف جسمه الأعلى «آه ماذا لو أصبحت الآن جذع شجرة!» ومرّ بالمرحاض في اتجاه المقصف. وعندما انحرف قليلاً عانق وجهه لون اللوحة السوداء التى علقت عليها أوراق للإعلانات الطلابية. هناك.. ماذا؟ محاضرة مساء يوم الغد عن «الاشتراكية العربية...» ولم يكن يقرأ. كان يستمع لضجة داخل المقصف وصوتًا نسويًا ينفجر في الفضاء عابثًا لا مبالياً. وحوّل الاتجاه ودخل. كان

ثلاث من الطلاب خلف الفاصل الخشبي يعبثون بمنفضة حجرية: يدفعها الأول فيتلقفها الثاني ليردها الثالث. وكانت الفتاة التي تضحك بصخب وجهًا مألوفًا لديه. إنهم ينعتونها بالحمقاء. فهي لا تبالي بأحد. وهي تتحدى المفاهيم المغلوطة والافتراضات والشروط. وطلب بو مهدي قهوة. ودفع الثمن، وجلس في ركن قصي بعد أن غمز لزميل. وفي المقصف كانت الحركة دائبة، والكلام كعجينة في آلة للعجن: ينبعث طريًا ويمتزج ويلاك، حتى يصبح في النهاية لا يعني شيئًا على الإطلاق. كان هناك طالب ذاهب في القراءة. «لست أدري كيف يقرأ وسط هذا الضجيج، ووسط ضحكات تلك العاهرة المدعوكة الجفون».

وفي الباب كان هناك طالبان معروفان بنشاطهما السياسي. وكانت في أيديهما حزمة أوراق وهما يتحدثان بعصبية وانفعال. فخمن أن هناك شيئًا. وبدأ الطالبان يوزعان الأوراق المضروبة على الآلة. كان هناك إضراب إذن.. لماذا؟-

وسرت همهمة بين الموجودين في المقصف. وبدأوا يخرجون واحدًا واحدًا. ورشف بو مهدي آخر جرعة لكي ينصرف بدوره. وفي باب الكلية كانت الفتاة التي يشتهيها بنطلونها، واقفة بشكل مغر وتحت إبطها محفظتها. كان يحاول أن يحدثها. ولكن لم يكن ليستطيع. فهو لم يسبق له

معرفتها. أحبك.. هل تعرفين؟ لماذا تحادثين الآخرين ولا تحادثينني أنا؟

لم تكن جميلة، ولكن جسمها شيء رائع. «لو أتزوجك ثلاث ليالٍ فقط لأطلقك!» وضحك من نفسه.

كانت تنظر إليه بفتور وتحاول أن تغريه أكثر، غير أنه حاول ألا ينظر إليها. «إن ذلك سلاح يقهر المرأة، لن أتنازل لك عن حريتي لأول مرة، إني أعرف أن هناك تعارضًا للحريات. ومع ذلك فسأبقى مصرّاً حتى تذعني أخيرًا.

إنك تثيرين فيَّ اللذة والرغبة.. باختصار إنك حيوان وأنا لست كذلك بتاتاً».

الشمس تنزل على قفاه. وهو يدوس الأشعة المتكسرة على الطريق. وكانت محفظته تزن آلاف الأطنان في تلك اللحظة.

الهواء صار دبقاً لزجًا متعفناً.

8

انضم بو مهدي ظهيرة ذلك اليوم إلى سالم، وصالح، وعبد الرحمن، في المقهى. كانوا على موعد. لم يكن هناك أمر خطير، ولكنه قتل الوقت. فالأيام كسلى ورتيبة. والساعات تتحرك باعتياد ممل. ولذلك فالدردشات على إفريز المقهى هي البحر الرحيم الذي يبتلع شتى الاعتبارات التي تواجههم. وهي الماسح الوحيد لأغشية الشمع الملصقة على حياتهم.

(الدقات الرهيبة انتحار لأيامنا المقبلة، لأيامنا المعاشة..)

كان المقهى غارقًا في الشمس، والكراسي الملونة فقاقيع من الصمت المطبق، تنتظر أي حركة أولية لتنفجر. وكان وجه صالح محتقنًا ومنتفخًا. بينما سالم – وهو يداعب بو مهدي –

كان بادي الارتياح قليلاً. فالسوداوية انطمست قليلاً من عينه. أما عبد الرحمن فيبدو أنه كان في شجار مع زوجته. وقال سالم لبو مهدي بلهجة مرنة كالكاوتشوك:

- لقد تأخرت قليلاً. ماذا كنت تفعل؟

- كنت نائماً.

وكان عبد الرحمن يحصي نقرات حذاء ذي كعب تمرّ صاحبته من الرصيف المقابل. وكانت عيناه ملصقتين بها.

كانت مئذنة المسجد في الجهة المقابلة هناك، تبدو كجذر ترابي مدبب. وخلف المئذنة بقطيع من السحاب الأبيض، ضائع بلا هوية. لماذا لا أمارس الدين؟ هل صحيح أنه لم يكن هناك إله خلقنا؟ هل ما أفعله الآن يُعتبر عبثاً؟ هل حياتي شيء أكثر مما أعيشها عليه؟

وكان المذياع يئز أزيزًا قويًا كأزير محرك سيارة. وأحسّ بو مهدي أنه يتنرفز لهذا الصراخ وهذا الضجيج. لو أنني الآن أستطيع أن آمر فأُطاع.

(- النساء فارغات.

- اسكت، فأنت في حاجة إليهن دائمًا.

- ليس دائمًا.

- أنت مخطئ).

وكان صالح يحك ذقنه الحليق، وفي عينيه كان بريق سماوي مشع. «ما أشبهك بامرأة يا صالح! إن شفتيك تبدوان كأنهما في حاجة إلى أحمر شفاه».

(- إني أحب النوع الوادع من النساء.

- وأنا أحب الحزين

- المليء بالمشاكل).

وانطلق عبد الرحمن يضحك، وبدا لبو مهدي أن أنفه شبيه بأنف بهلوان في سيرك. بينما قفزت العبارات من فم سالم كفقاعات الصابون:

- ولم لا؟ إن ذوات المشاكل إنسانيات.

وقال صالح:

- هل نبحث عن مدفن لأحزاننا أم نسعى لأن نكون مدفنًا لأحزان الآخرين؟

- كلتا الحالتين شيء إنساني.

- أنا أرفض هذا.

وقال سالم:

- أنا لا أرفضه. ما دامت النتيجة هي القضاء على الأحزان. فلأكن أنا أو ليكن الآخر وسيلة. فإذا فقدت حزني

فـيفقده الآخر بالتالي.

كانت بعض التلميذات يقفزن في مرح شديد. ثلاث فتيات انفجرت صدورهن. الشعر أحبه أسود أو أشقر. زوجتي ستكون نحيفة وذات شعر ناعم أملس. شعر ليليّ أسود ناعم. قلت له مرة، كان من الأليق بك أن تكوني تمثالاً في متحف. أما التعليم فلا يصلح لك بتاتًا. وانطلقت تضحك في إغراء. وكانت شقيقتها تنرفزه.

(في بعض الأحيان يحار المرء في اختيار نوع النساء الذي يروقه. ليلى تبدو لي الآن ملائمة. فهي وإن كانت امرأة تحمل تاريخًا من الأحزان طويلاً، أحسها على كل حال ملائمة. الفتاة التي أشتهيها في الكلية شعرها أكرت. غير أن جسدها أفروديتي. الشعر هو مأساتي التي أعانيها. أما الجسد فمسألة أخرى).

كان عبد الرحمن يجرّ الكرسي إلى الأمام، ويقترب من سالم وهو يتحدث بعصبية صخرية. وفي زاوية المقهى كان رجل أسود يطالع صحيفة ويختلس النظر إلى شيء. وخلف صاحب الصحيفة، كانت نباتات شوكية تعلن وجودها. وخلفها أيضاً الزجاج، وخلف الزجاج نافذة مفتوحة. وكان المذياع قد انخفض ضجيجه قليلاً. أما الأغنية التي كانت تنبعث منه، فقد كانت دفيئة وحزينة.

(العالم يتكون من عناصر أربعة، ثم ماذا بعد؟)

هناك أطفال يعاكسون امرأة حمقاء. وفجأة برز رجل، وركض خلف الأطفال. بينما جعلت المرأة الحمقاء التي كانت قصيرة الجسم، تحرك يديها، وتعلن أنها متزوجة، وأن أباها ميت، وأنها قتلته، وأنها ستضربه على قفاه إذا لم يبتعد. وضحك الرجل وانصرف واثقاً من نفسه ويداه في جيبي سرواله.

(- قلت لها إنها إذا لم تكن راضية عني فلتنصرف.

- وماذا فعلت؟

- لا شيء.

- إنها جبانة.

-كلهن كذلك.

- ألم أثبت لك قبل لحظة أنهن في حاجة إلينا؟

- أستطيع أن أتأكد من ذلك وقد لا أستطيع.

- يجب أن تتأكد.

- سأحاول أن أفعل).

ودخل بو مهدي في الحديث هو الآخر. فقد بدا ساهماً. ويبدو أن الحديث قد شغلهم عنه. إن انصرافهم عني كان

تحت ضرورة احتداد الكلام. وبدأ وجه سالم يتغير شيئاً فشيئاً. وأخذ يبيضّ قليلاً قليلاً. بينما كان صالح قد استلقى على كرسيه وقد تعب من الكلام.

الساعات تمر فارغة

ونجتر نفس الكلام.

(صالح وعبد الرحمن يخونان زوجتيهما. وسالم أمه تموت في الدهليز مسلولة. وأبوه يبحث عن لذاته في الماء العكر. إنه لا يزال قوي الجسم. وابنه قد أصبح شيخًا. يشرب كثيرًا. وفي الرسم يقول إنه يجد لذته الكبرى، والفن إنما هو عطاء إنساني كبير. إنه أسمى ما يقدم الإنسان للإنسان. وأن تمارس الفن معناه أنك تؤنس الآخر. إنها تجربة مبتعها السماء. إنها تجربة ترتفع عن الطين. عن الوحل. عن الشر المتأصل في الأرض. وكان الحديث ما يزال يتضخم بلا حدود.

- لاشك أنها تخونه.

- ألا تكف عن اغتياب الناس.

- أوف. إنهم يغتابونني أيضًا.

- من قال لك ذلك؟

- تجربتي الشخصية.

- أنت إذن تغتابهم ويغتابونك.

- بالمقابل.. نعم.

- هل أنت متأكد؟

- سأحاول أن أفعل).

كنت أعيش قطعة في السماء. أصبحت ذرات انتشرت في هذا الفضاء الواسع المزرق. ما أروع أن يتخلص المرء من القيود الواقعية التي تشهدها الشروط المزيفة.

كانت عيناه في السماء وتحولت إلى الأرض. المسجد جذر ترابي مدبب. والطريق هنا تحت إفريز المقهى رمادية ومستوية. وكانت هناك امرأة تعبر وهي ملفوفة في شرنقة من القرون الوسطى والإسلام. وقال بو مهدي لسالم الذي كان محولاً عينيه إلى اليسار وكأنه يستمع لمناقشات الرجلين هناك. - انظر.. انظر . - يا لها من رائعة. وبدأ سالم ينفعل. وأحسّ بو مهدي أن صديقه أوشك على الانهيار. وفي الواقع فقد اهتزّ بدوره من الداخل. هذا الجسم. هذه اللذة. إنها تساوى العالم.

(- ليس فقط لأنها كانت قد ذهبت معه. وإنما هناك مسألة أخرى.

- أنا أعرف الحكاية.

- ها أنتذ في مجرى الأحداث).

واختفت المرأة، وكان سالم أخيرًا قد أطلق زفرة وفرك

يديه. بينما أعلن صالح أنه يجب أن ينصرف فالساعة جاوزت السادسة، وهو يشعر بشيء من الجوع.

وعندما وقف بو مهدي، شعر بدبيب في رجله اليمنى، وتقدمه كلّ من صالح وعبد الرحمن، وكان سالم لا يبعد عنه سوى بخطوات قليلة. وكان بو مهدي يعرج بفعل الدبيب في رجله. يقف لحظة ويتوجع أخرى. ثم يستأنف السير. وكان صالح وعبد الرحمن لا يزالان يتحدثان. إنهما لا يشبعان من الكلام. إنهما لا يشبعان من الكلام.

9

حذاءها قرب السرير، فارغان كأنهما ينتظران زيارة بابا نويل. ليلى صوتها يأتيها من المطبخ في شكل دندنة أمومية حنون. حذاءاها قرب السرير. وفوق هذا الأخير، لوحة بريشة سالم تمثل امرأة في عريها التام. الجدران الصفراء مسخ لونها نور الكهرباء. سالم ذاهب لزيارة أمه. غرفته حزينة جنائزية. وخلف النافذة مصباح أصفر في حجم برتقالة. الأشياء تبدو مضيئة.

المساء بدأ يتوغل في الليل.

ليلي تُعدّ طعام العشاء في بيت سالم. للمرة الثالثة سيأكل هذا الأخير طعامها. لقد تركت بيتها وجاءت لتقضي بعض

الوقت هنا. أحبك يا ليلى. أشتهيك. رأسي ثقيل كالرصاص. في جمجمتي نغم كنسي رتيب. طن – طن – طن.

ليلى لا تزال تدندن. وحذاءاها قرب السرير ينتظران. كانت المجلة المصورة في يد بو مهدي تكاد تبتل من العرق. لقد نسيها (كثيرًا ما تشغلنا أشياء عن أخرى).

جاءت ليلى وفي قدميها خفّان لسالم. كانت تدور على نفسها كالخذروف.

– لماذا أنت ذاهب في هذا الشرود؟

قال فجأة:

– لا. لست شاردًا.

– إن عينيك تقولان ذلك.

– ممكن. هناك خدعة نظر في غير شك.

– لا. أنا لا يخدعني نظري أبدًا.

– أنت متأكدة؟

– طبعًا.

– أحسدك على هذه الثقة والتأكيد.

وجلست على حافة السرير في مواجهته. لم يكن في الغرفة سوى كرسي واحد. ثم.. ثم هذا السرير. فخذاها ثريان.

وشعرها المعقوف كان يهزه. وضع المجلة المصورة. وزحف إلى ليلى فأفردت له مكانًا بجانبها. حذاؤها قرب السرير. عندما استوى بو مهدي نزعت الخفين وانبطحت فوق السرير. انحسر ثوبها حتى بطنها. فخذاها مكتنزتان. فمها كفم طفلة عمرها سنتان وخلف النافذة برتقالة كهربائية تسطع. كتفاها رائعان. عيناها شبيهتان بالبندق. أنا أشتهيك. وأنت؟ هل تحبينني حقاً؟ محال.. أنت امرأة حجرية، أنت أفروديتية. لو كنت تحبينني حقاً لأحببت زوجك. عفوًا.. إن هذا منطق غريب.. قد لا تحبينه وقد تحبين رجلاً آخر. هذا هو المنطق. غير أنني لا أحتمل أكذوبة أنك تحبينني. أنت جميلة. ولكنك للأسف.

قال ببرود وقد انفصلت شفتاه عن شفتيها:

- هل تذهبين إلى المدرسة على الأقدام دائمًا؟

- لا.. آخذ الأوتوبيس.

- والزحام؟

- لا يكون هناك عادةً زحام في الوقت الذي أذهب فيه إلى المدرسة.

كانت عيناها معلقتين بالسقف. أما شعرها فلم يعد معقوفاً. تشتت تحت رأسها بينما ارتمت خصلات سود على جبهتها. أمسكت بالخصلات ودفعتها إلى الخلف. إنك ماكرة.

أنت بئر عميقة أسطورية. من يستطيع أن يُدلي بالحكم النهائي عليك؟ إنك غامضة.. أنا شخصيًا أفكارك لا تعجبني. أنت فتاة غير مثقفة. وأنا أحب هذا النوع. لكن على الأقل يجب أن تطالعي بعض الكتب الجادة. سيصبح مستواك في مستوى تلامذتك ولن تفوقيهم يومًا إلا بالتجربة والسن. لو جاء الآن سالم ورآك بهذا الوضع. هل تظنين أنه سيظل في حالة سوية؟ أنت لا تعرفينه. أنت الآن مسترخية في سريره. وقال بفتور:

- هل نطفئ الضوء؟

- افعل إذا شئت.

وكانت تضحك. وعرف أن سؤاله ينمّ عن بلادة. أرجوك لا تؤاخذيني. إن الرجل الذي يشاور المرأة في أمور كهذه يجب أن يُدفن في ثيابه. أليس كذلك؟

هل كان زوجك يعاملك هكذا؟ إذا كان كذلك فأنت محقة في خيانته. أما هو فليس محقًا في طلاقك. يجب أن يحتمل نتيجة فعله، حتى ولو كان هذا الفعل غير دموي.

كان يدخل في جسد ليلي. وكانت تدخل في جسده. خلف النافذة الضياء باهت. وفي الغرفة ضوء شبيه بضوء القمر. وشعر بو مهدي أن شعورًا ينتابه، شعورًا غامضًا في بعض الأحيان. كل شيء يبدو لي نسبياً ومزيفًا. حتى أنت يا

ليلى، في بعض الأوقات لا تساوين شيئاً بالنسبة إليّ. كانت قد تحركت وذهبت إلى المطبخ. أما هو فلا يزال ممددًا في مكانه. هذه المرة كان هو، يراقب السقف. قفز في النهاية إلى الأرض. حذاءاها لا يزالان قرب السرير. أف. إنها تأبى إلا أن تضعهما قرب السرير دائمًا. أرجوك.. غيّري هذه العادة. إنها عادة لا تليق بك. لماذا تتصرفين بوحي حيوانيتك؟

وتبعها إلى المطبخ مفككاً محطومًا. جسده كان ثقيلاً مثل كيس من الخيش مملوء بالبطاطا. كانت تغسل يديها. وضع يديها على كتفيها وأعلن لها هذه المرة.

- أنت رائعة!

دفعته بإغراء:

- دعني أتمم شغلي.

- لم أفعل لك شيئاً.

- أنك ثعلب.

- وأنت؟ هل أنت دجاجة.

وكان الندم باديًا على وجهها. ليس يدري لماذا تندم بسرعة مع أن الأشياء تتم بشكل عادي؟ إنك رائعة.. رائعة. (ها أنذا أقولها لنفسي. ألا تريدين أن أقولها لك بصراحة) كما تشائين، أنت لست رائعة..

ولوى راجعًا من المطبخ إلى قلب الغرفة. جسده ثقيل ومفكك. يا للفظاعة! لماذا حذاءاك لا يزالان قرب السرير؟ جمع قوته وضربهما برجله فأحدثا ضجيجاً هزّ الغرفة وحطّم الصمت الليلي الثابت في المكان. ومن المطبخ صاحت ليلى:

- هل جننت؟ ماذا تفعل؟

- لا شيء.

إنك حتى لو عرفت ماذا أفعل هل تستطيعين أن تفعلي شيئًا. عندما تجيئين وستجدين حذاءيك ليسا في مكانهما.. ماذا تفعلين؟

وجاءت ليلى بسرعة. إن العشاء معد. أين سالم؟ ألن يجيء؟

وكان يتوقع أنها ستقول من الذي غيّر مكان حذاءيها عندما جلست على السرير. لكنها – وعيناها في اتجاه الحذاءين – لم تقل شيئاً. وكأن الأمر لا يعنيها بتاتًا – كانت تبدو عادية تماماً.. قال لها:

- يجب أن ننصرف. ونترك له كلمة. أنا ليست لدي رغبة في الأكل.

وقامت لتحمل حذاءيها فوضعتهما في قدميها وألقت بخفي سالم. ثم اتجهت أخيرًا إلى المرآة لتسوي شعرها. وبعد

لحظات كانا يهبطان درجات العمارة. وفي الطابق الأخير التقيا سالم.

أكدت له أن عشاءه في المطبخ. وكان بادي التأثر وحزينًا. فاعتذر له بومهدي لأنه لم يسأله عن أمه أولاً، فقال إنها في حالة سيئة، وأن أباه لا يزورها بتاتاً.

انطلقا يعبران الطريق والليل يلمس وجهيهما. كانت ليلى تشدّ شعرها بيدها.. فالريح كانت تنزلق عليه. الجو ليس حارًا وليس باردًا. الليل أصفر وأسود. المصابيح مدلاة وكأنها لا تتحرك. الصمت وفقاعات الهواء تنفجر داخل رئتيه. كانت ليلى تحثّ خطواتها. إن المدينة تبدو في هذا الوقت وكأنها خلت من الناس. واقترح بو مهدي أن يركبا سيارة أجرة فوافقت. ولما وافقت لم يجدا سيارة تقلهما. ولذلك فقد قررا في النهاية أن يتمشيا على الأقدام. آه يا ليلى! إني لأذكرك وأنت ذاهبة إلى المدرسة وأنت تلميذة. أنتن تكبرن بسرعة. لماذا تكوينكن الجسمي غير تكويننا؟ قولي يا ليلى.. وتزوجت – وأصبح لك طفل. وأنت كم عمرك؟ تسع عشرة سنة.. ألست صغيرة إذن؟ أصغر مني.. ثلاث وعشرون سنة.. ألست صغيرة إذن؟ أصغر مني.. ثلاث وعشرون. أوف فليكن يا ليلي. أنت الآن أضخم مني وتبدين ذات تجربة في الحياة أكثر مني.

كان الليل يزحف شيئاً فشيئاً، وفي صمت مطبق نحو الغرب. كان بو مهدي يحس أن الليل جيش من الآلام

والأحزان يمتطي آلاف الجرارات والزحافات نحو الغـرب.. يتجه لغزو هذا البحر الذي آلى على نفسه أن يعـيش حركـات عبثية: جرز ومد. جزر ومد. المدينة راقدة وليمت راقدة. لـيلى انظري هذا السكون. تخيلي أننا الآن في جزيرة مهجورة وحدنا. تخيلي هذا أرجوك.

قالت ليلى:

- الريح كأنها في صراع.. تتحرك وتهدأ.

ردّ بو مهدي بودٍّ:

- والليل أيضًا صامت. ألا تشعرين؟

- كأن الناس جميعهم نيام في هذا الحيّ.

كانا لحظتها يسيران تحت أشجار الخروب التي لم تـتطل. والتي لم ترتفع عـن الأرض. كـان ضـوء المـصابيح العموميـة يحاول أن يخـترق الأوراق ليُنـير الأرصـفة والطريـق. كـان في محاولة جادّة لتأدية مهمتـه بيـنما كانـت الأشـجار غـير مباليـة بالمصابيح ولا بالضوء. شاحنة كانت تـدق الأرض. وبعـض الأطفال الذين يقفزون هناك بعيـدًا، كـانوا يتبـادلون كلـمات قبيحة في وقت متأخر.

مشينا مسافة طويلة. ولذلك فقد أحسّ بو مهدي بأن ليلي تـتـنـشق الهواء بيسر وليونة. وكان سيل أشجار الخـروب قـد

انتهى.

- ها قد وصلنا!

أعلن لليلى بينما أكدت هي بدورها:

- لقد مشينا مسافة طويلة وبسرعة.

- لا أظن. إن المسافة طويلة بما فيه الكفاية.

- على كل حال لقد شعرت بأنفاسي تضطرب.

- أنتن تتعبن بسرعة.

ولم يبق أمامهما إلا خطوات. وعرجا يمينًا. والتفتت ليلى إليه. وفهم ما الذي تحاول أن تقوله. فهم منها كل شيء بحكم العادة. طمأنها على أنه فهم. وقالت هي: متى سنلتقي!؟

وبعد لحظات من الصمت في زاوية الطريق، أعلن لها رأيه في يوم الخميس القادم. ولم ينتظر حتى تفكر، بل وافقت بلا روية. وودعها بكلمات منفتحة...

لم يعد الليل صامتًا كما كان قبل لحظة. بل كان هناك ضجيج، وكانت هناك حركة، وبدا لبو مهدي كأن الليل قد توقف عن الزحف نحو الغرب، في اتجاه البحر..

10

كان كل شيء يغوص في الضباب. الأشياء لم تتمطط بعد في حيّز الشمس، ذلك الصباح - والندى فوق النباتات والطرقات - كان الجو ينذر بحزن أكيد - وكان بو مهدي يشعر بداخله انقباضاً كبيرًا شبيهًا بهذا الانقباض الذي تعيشه المرئيات في هذا الوقت.

كان قد توقف فجأة أمام باب الكلية. لم يكن هناك طلبة كثيرون. الجو هنا حزين أيضًا. الضباب فوق الأسطح بعيدًا. النباتات المخشبة منداة. وخطا إلى الداخل ونشر عينيه في الساحة. وعندما رأى أحد الزملاء مشى إليه وكأن بقدميه أقفالاً حديدية. كان وجه صديقه كالصفيح. وكان متكئًا على

جدار هناك: على بُعد مسافة قريبة... وبعيدًا عنه قليلاً، كان طالب جالس على درج سلم يؤدي إلى قاعات داخلية.. كان هذا الأخير يتأمل صحيفة في يده. سلّم بو مهدي على الصديق. ثم توجها إلى المقصف الذي كان خاليًا تقريبًا من الطلبة.. وهناك، حيث الصمت الغامض، بدآ يتحدثان بهمس شديد. لم يكونا يخافان شيئاً في الواقع. ولكن واعزاً خفيًا كان يقول لهما بألا يرفعا صوتيهما.. أعطى بو مهدي للصديق مهلة إشعال سيجارته، وعندما انتهى أشعل له سيجارة. وكان ينفث الدخان في وجهه. ثم قام واتجه إلى الفاصل الخشبي فأحضر فنجاني قهوة.. كان بو مهدي يدخن بتفكير وعيناه تتأملان حذاءيه مرة وأرض المقصف مرة أخرى. وفي الخارج كانت تنبعث قهقهة خفيفة.. ما هذا؟ ألست حزينًا أيها الوغد؟ وقال له الزميل في النهاية:

- إنهم لا يزالون هنا (!!)

ولم يرد عليه. كان منشغلاً بالنظر إلى قدميه الجامدتين كالحديد. ودخل فوج من الطلبة إلى المقصف دفعة واحدة. أمسك أنفاسه عندما رأى الفتاة التي يشتهيها. هذه المرة لم تكن ترتدي بنطلوناً، كانت ترتدي لباسًا عادياً. ذهب عنه ذهوله فلم يعد يفكر بعمق، واتجه إلى التفكير فيها بكليته – ذهب إلى الفاصل. وما زال يتابعها بنظراته.. عنقها طويل وطري شيئًا ما، إنه يلمع. غير أن شعرها الأكرت قليلاً كان لا يعجبه..

أنت لست جميلة، ولكنك هائلة. ما معنى هذا؟ إني لا أستطيع أن أميز بين الكلمتين. إني أشتهيك.. جسدك! جسدك! التفتت عن يمينها. وبدأت توزع نظراتها في المقصف الذي كان شبه فارغ قبل لحظة. آه! انظري إليّ. غير أنها لم تكن تنظر إليه. كانت قد بدأت تنشغل بتذويب قطع السكر في الفنجان. وأخيرًا حملت فنجانها وكعكاً هلاليًا، وتوجهت لتجلس في الوسط، حيث كانت كراسي أربعة تنتظرها. إنها رائعة الجسم. يا للأسف عيناك منتفختان ووجهك ليس جميلاً إلى الحد الذي يُرضي. قال لصديقه الذي كان منشغلاً بالنظر إلى طالبين يتناقشان بحدة:

- انظر.

ولكزه بذراعه، فالتفت مستفهماً. فأشار بو مهدي بحاجبه إليها وهي منشغلة بالأكل. فقال صديقه:

- إنني أعرفها. جمالها ليس مميزاً.

- إنها تعجبني.

وتحوّل الحزن في عيني صديقه إلى ما يشبه المسرة. وأكد له أنها ترافق رجلاً متزوجًا، وأنها تحبه رغم أطفاله. وهي تحبه بلا أمل. وكانت هي تأكل كعكها الهلالي بنهم. وفي الأخير.. وفي الأخير.. مسحت على عينيه بعينيها.. أخيرًا أيتها الملعونة نظرت إليّ! كنت أتوقع أنهم. ولكن، إنهم لا (...) مثيلاتك،

أليس كذلك. وكان صديقه ينفث الدخان في وجهه وهو يتكلم:

- انظر.. انظر.. إنهم لم (...) وأشار إلى طالب معروف بنشاطه. دخل هذا الأخير إلى المقصف، وبدأ يوزع نظراته وكأنه غير مبال. وبدأ يتمشى بخطوات وئيدة في الوسط وهو مُطرق الرأس. يبدو عليه وكأنه يعيش جواً جنائزيًا. في النهاية لم يعيراه اهتمامهما. غرق الصديق في تصفح كتاب أمامه، بينما كان بو مهدي يطالع الأسرار في عينيها وقد أنهت كعكها وألقت بجسدها على متكأ الكرسي. وقابلته بوجهها المصبوغ بمواد كيماوية لمّاعة. وقال الصديق: «هناك إضراب..».

وتأكدا من ذلك. كان الطلبة قد بدأوا ينصرفون من المقصف واحدًا وراء آخر. وكان الطالب النشيط قد اختفى. لقد أعلن ذلك واختفى. لم يرد بو مهدي أن ينهض. كان منشغلاً بغرامياته. أنت لم تسمعي شيئاً؟ لماذا لا تنهضين؟ لقد نهضوا جميعًا إلا أنت ... وو ... و .. أنا.

ثم وقف بتفكك. وتبع صديقه الذي نهض قبله. كانت هي لا تزال جالسة وكأنه الأمر لا يعنيها. وواتته فكرة: أن يذهب إليها وأن يقول لها بأن هناك إضرابًا. وستكون فاتحة خير. ثم.. ثم بعد ذلك سنتعارف. ثم.. كل شيء سيتم كما أريده. كان يفكر هكذا. وكان يتبع صديقه. فحتى محاولة الالتفات إليها لم يتجرأ عليها. كان يخطو خطوات ثقيلة

ورأسه إلى الأرض. وكان يسمع صوت حذاء نسوي أمامه. وكانت هي تتبختر. لماذا تمشين هكذا ابدلال؟ هل تعرفين مفعول جسمك فيّ؟ أرجوك. لا تحاولي معرفة هذا. إنك إذا عرفت فستلذذين بعذابي. ألا تحترمين لزوجية؟ أنت التي ستشردين الأطفال. ها أنذا أقولها لك. وإذا شئت فتأكدي أنت من ذلك بنفسك بعد أن تتجردي من عواطفك التي انحرفت بلا إرادة.

كانت محفظتها في يدها تتحرك في كل خطوة. وكان قلبه ينط هو الآخر إثر كل خطوة. كانت خطواته مفيدة. وكانت هي قد اختفت.

في خارج الكلية الضباب لا يزال. السيارات قطع من الضباب. الطريق مُنَداة لا تزال. وكانت كماشة الضباب تقبض على قلبه بيد صلبة كالزلط. وكان يفكر في أشياء كثيرة. رأسه لا يزال ثقيلاً ورجلاه تخونانه، وكذلك يداه وجسمه.

11

رجل مات. في الشارع قبضوا على القاتل. رجل مات ورجل سيموت.. لماذا قتله؟ لا بدّ أن هناك حافزًا خارجًا عن طاقة القاتل والمقتول معاً. والآن، الناس يتأسفون وبعضهم يلعنون. وبعضهم يقولون كلامًا بذيئًا مليئًا بالمرارة والحقد. هناك موت حقاً. لكن من يستطيع أن يقول إن هناك شيئًا اسمه الموت. موت ثابت وأكيد. إني لأتذكر واحدًا يقول بأنه في لحظة الموت يحضر الانتحار. تأتي فكرة الانتحار مجلوة واضحة وطيبة غير شريرة. أن أنتحر بسهولة ويسر.. أن أتناول أقراصاً مميتة. لم يسبق لي أن عشت لحظة موت. ولكن فكرة الانتحار ألّحت عليه إلحاحًا شديدًا. هناك برم شديد

بالحياة لديه أحيانًا. كل شيء يسودُّ. كل شيء تافه. كل شيء لا معنى له. ليس له جدوى. أنا خُلقت من جديد. أفكر أحيانًا في الفرق بيني وبين هذا الجدار وهذا النبات. ربما يكون أحسن حالاً مني. ثم تلح علي بو مهدي بعض التساؤلات التي تبدو تافهة ولكنها في الواقع عميقة وذات دلالة. الإنسان يسير بشعور جماعي.

الفردية تؤدي إلى الحقيقة.

لكن ما أمرَّها.

في داخل الذات هناك آلام وانتحارات باردة كالصقيع.

الهاوية مظلمة داجية كالخرافة.

عندما أنفصل عن العالم الخارجي أتبين لا جداوي فأرجو رجاءً حارًا هؤلاء الناس الذين يضحكون في حالة مرارة أن ينتبهوا .

فالمرارة تغلفنا ولكننا نضحك.

الشعور العام الذي يمسكنا جميعاً كخيوط الكراكيز. يغلف حقيقتنا. إن الموت شيء طبيعي. أن أقتلك أو تقتلني شيء طبيعي. نحن جميعًا سنموت. فماذا إذن إثارة هذا الغبن الذي يسود لا حقيقتنا؟

كانت أفكار كثيرة تضطرب في رأسه. الرجل مات. الآخر أُلقي القبض عليه. وبعض لحظات سيموت. لحظات تطول أو تقصر. والانتحار يحضر في لحظة الموت. أنا لم أعش تجربة موت. العالم لا يكتشف حقيقته لأنه لم يعش فرديته. طغيان الشعور العام يتمادى. كان ذاهبًا إلى سالم ملئ الرأس بكتل إسفنجية من الأفكار. يضغط بعضها، فيخرج منها الماء العكر. كانت يداه في جيبيه، والجو ساخنًا هذه الظهيرة. نفير السيارات يمتد، والجدران تمتد، والسماء تمتد في اللانهاية. وكل شيء صاخب، والرجل مات وآخر سيموت. وربما هناك من يموت الآن والآن والعالم لا يزال يسير. البعض يضحكون، وآخرون يبكون. وسالم ربما كان مستلقياً الآن على سريره ينظر إلى السقف، أو جالسًا يتأمل وجه السماء خلف النافذة، أو يرسم لوحة يصبّ فيها مأساة أمة المسلولة وأبيه الزنديق. والعالم لا يأبه لأي أحد. الحركة تحتد وتلتهم باقي الحركات الأخرى.

كان بو مهدي يسير ورأسه تكاد تنفجر، والقلق يضغط قلبه الكسير، ويبعث الآلام والغثيان والنرفزة في أعصابه التي تتوتر. كانت عقارب ساعته لا تتحرك. بطيئة كانت تسير. الزمن يتوقف ولا يتوقف. في ساعته هو يتوقف. وخارج إطارها يسير بسرعة لا يشعر بها.

أنا لا أستطيع أن أشعر بها. هو الآن في وقت الظهيرة: سأذهب الآن هنا أو هناك. وسآكل وسأضحك وسأحزن وفي النهاية سأُعيد هذه المسرحية.

كانت الأفكار في رأسه كشريط سينمائي. وكانت قدماه تقفزان في درجات سلم العمارة. وكان يتخيل سالم خلف الباب يقبع وراء النافذة . لقد منعه انشغاله بالتفكير حتى عن إلقاء نظرة قبل لحظة إلى نافذة غرفة سالم. طفف طف على الباب. وكان صالح هو الذي فتح الباب. كان بادي الفرح. عينياه تجمدت فيهما المسرة وغلفتهما. صورة الطفلة الصغيرة الضاحكة في مواجهة الباب كانت تضحك. هذه الطفلة رسمها سالم مرارًا وأعاد رسمها مرات ومرات. إنها تضحك على العالم الوغد، العالم الوحش، العالم الرديء، كما يقول سالم. أنا لا أوافقك يا سالم. إن ضحكتها ليست ضحكة سخرية. هذه المرة يجب أن تتأمل الصورة جيدًا. هذه ضحكة تشفٍّ. أنت تنظر بعينك الداخلية لا بعينيك الحقيقتين. أنت تحكم من خلال وضعك. هذا ليس حكماً نهائيًا وصحيحًا. ووثوقياً. يجب أن تنفصل عن وضعك وتحكم. وقال صالح:

- أقدم لك.

وقالت الفتاة:

- ....

ولم يسمع اسمها جيدًا. وقال تشرفنا. ومضى إلى الكرسي ليجلس. كانت في وضع مُزر على السرير. وسالم أين هو؟ أنت وحدك هنا يا صالح.

قال لصالح:

- أين سالم؟

- ذهب يزور أمه.

- متى؟

- قبل لحظات ليست بعيدة.

- هل سيتأخر؟

- أكيد.

وكان يتكلم من خلال فرحه. وهو جالس إلى جانب الفتاة كان يبرم شاربه. شارباك قبيحان أيها الوغد، وأكد له أنه يجب أن ينصرف وسيزور سالم في المساء. فألحّ صالح على البقاء. وفي عينيه لمح بو مهدي شيئاً من التردد. كانت تتوسل إليه ووجهها إلى الأرض أن ينصرف. أن ينسحب من هذه الساحة. ورغم إلحاح صالح على أن يبقى معهما، قرر في داخله أن ينصرف. ثم أمسكه شيء غريب. ألّحت عليه فكرة أن

يروي لهما قصة الرجل الذي مات والذي سيموت والذين ماتوا والذين سيموتون.

وبدأ لا شعوريًا يروي لصالح القصة. في الطريق ألقوا القبض على قاتل. هل تعتقد أنه قتل بحرية؟ هل كان يمتلك حريته وإرادته؟ لا أظن. لقد كان الفعل لا إرادياً.

وبدا لبو مهدي أن الفتاة لا تفهم. ولعنها في داخله. بينما كان صالح تتغير سحنته. وقال من خلال آلامه وانتحاراته:

- المسكين! سيقتلونه الآن.

وخرجت الفتاة عن صمتها.

- من يقتل يقتل؟

ونظر بو مهدي إليها في صمت. لقد قالت شيئاً ذا أهمية كما يبدو. لا أيتها الآنسة المجهولة. هذه ليست الحقيقة. نحن جميعاً مخطئون منذ بدء الخليقة. الحقيقة غير ذلك. وخرج عن صمته وتفكيره متوجهًا إليها بالحديث.

- سيراعون ظروف القاتل.

قالت:

- فلتكن ظروفه هكذا أو هكذا. من يقتل يُقتل.

- لا تتعصبي.

وبدا عليها شيء من الغضب. وكان صالح لا مباليًا بكلامها. يبدو أنه ملّها وملّ حديثها. إنها تقول كلامًا عاديًا، يقوله جميع الناس. ما ذنبها؟ لا شيء.

كانت السماء قطعة هندسية زرقاء. خلف النافذة بنايات قصيرة تبدو تحت جناح العمارة. الهواء يدخل باردًا منعشًا. صالح يتحرك فوق السرير، يُغَيِّر من وضعه. الفتاة جامدة. شاربا صالح كثان كذيل حمار. الفتاة في الصورة تضحك ضحكة فرح وليس ضحكة تشفّ وسخرية. سالم ذهب ليزور أمه. والغرفة لا تبدو كما كانت طبقات من الأزبال. لقد تغير منظرها قليلاً.

وقال بو مهدي من خلال صمته:

-- صالح.. لدي شغل. سأنصرف الآن.

– قلت لك ابق معنا.

– لدي شغل. دعني أنصرف.

وهو ينفث هذه الكلمات بفتور كان يقف.

الهواء بارد يدخل من النافذة. الفتاة شعرها ينسدل بفوضى على وجهها وكتفيها. أنت تشبهين مومساً. من يدري ربما كنت مومساً. صالح ليس له ذوق. يخون زوجته لكن مع

نساء ليس لهن جمال بارز. أنت جميلة ولكني أعتقد أنك ثقيلة الظل.

ومدّ يده للفتاة فودّعها. وودّعه صالح في الباب. قفز درجات سلم العمارة. واحتضنه الشارع عند قدم العمارة.

ضجيج السيارة والشاحنات.

الناس يمشون بلا هوية.

الحياة غير مجدية.

العبث في كل شيء.

هذا العالم لا يُحتمل.

وكان يجتاز الشارع إلى الطوار المقابل وقد انقطع سيل السيارات. بحث في جيبه فأخذ يتلهى بها. وكان رأسه غارقًا في بركة من القلق والضيق. لأن صورة الرجل القاتل قد بدأت تظهر وتختفي. كأنها غريق. كأنها غريق.

12

المدرسة كتلة من الحجر طلاؤها أصفر. اليوم يوم الخميس. الساعة تقارب الخامسة. واعد ليلى بأن يلتقي بها بباب المدرسة التي تدرّس فيها. لم يكن متضايقًا اليوم ولا قلقًا مثلما هو دومًا. يفرح ويحزن في مواسم فجائية. كان قد انتحى مكانًا ليس ببعيد عن باب المدرسة الرابضة ككتلة من الدمن في صحراء. وعلى أحد أعمدة الكهرباء أرض ثقيلة. وجسم لم يعد رهن إشارته. أصبح طريًا كدودة الأرض. ورخوًا كالعجين. وكان يرفع ساعته غب كل لحظة. الساعة الخامسة أوشكت ومع ذلك فهو لا يزال يعتبرها بعيدة جدًا. ما أمرّ الانتظار! ليلى الآن ربما تعيش في حالة نفسية مماثلة. ترى هل

تنظر إلى ساعتها مثلما أفعل الآن؟ أم هي تلقي درسها. أم تعاقب تلميذًا يحاول الإخلال بنظام الفصل. اسكتوا أيها الشياطين. ستخرجون من الفصل بعد قليل، امرحوا كيفما شئتم. كان يتخيل ليلى كذلك، وكان يتخيل الفرحة تنز من عينيها. وتطفر دموع الابتهال على وجنتيها فتبادر إلى مسحها بمنديلها المطرّز بأناة. ليلى، أنا أيضًا في وضع مشابه. أنا أيضًا عيناي تنزان دمعاً. ولكن الدموع لا تطفر فوق وجنتي. أراهن على أني عاطفي أكثر منك. أنا أتألم كثيرًا وأفرح بسرعة وأتعاطف وأتواجد بقوة.

وغيّر من وضعه عندما رأى أول طابور من التلاميذ يلتهمه الشارع. كان الأطفال صغارًا في المجمل. ولبث ينتظر المعلم أو المعلمة التي ستتبعهم. كان معلم عجوز هو الذي أطلّ عليه خلف نظارتيه الرخيصتين. ثم توالى سيل التلاميذ وهم يخرجون. أوه ليلى. أنا انتظرك هنا. تعالي. أنت أجمل مما ينبغي. وأمسك الحوار في نفسه. كانت ليلى قادمة من بعيد. ساقاها فوق حذائها ذي الكعب العالي كقلعتين فوق مرتفع. وأمسكها من ذراعها. لم تكن دموع الفرح في عينيها كما كان يتخيل. عيناها طبيعيتان. ليلى أنت خدعتني مرارًا. وقال لها بسرور:

- لقد جئت في الموعد.

وكانت تسوّي وضع محفظتها تحت إبطها. ومن خلال خداعها له قالت:

- أنت حريص على المواعيد. هذه خصلة حميدة فيك.

وشعر بشيء من الزهو. ليلى أنت رائعة. كانا يتمشيان ببطء. كانت خطواتهما بطيئة للغاية. فكأنهما كانا يستمعان إلى هذه الموسيقى التي تحدثها أحذيتهما مع الطريق. وسحب يده من يد ليلى. كان يمشي بمحاذاتها تماماً. ولأنه فطن إلى أن الناس ينظرون إليه؛ أكد لنفسه أنه محظوظ. امرأة جميلة أرافقها. لم يكن يدرى ما هو شعور ليلى. هل هي الأخرى تحسّ بزهو. شاب جميل (لست أدري ما إذا كنت جميلاً) يرافقها. وهو قوي وو. إلخ. هناك صلفات أخرى ربما تتبادر إلى ذهنها. وقال لها:

- ألا تحسّين بالجوع؟

- تماماً.

وأشار إلى بائع معجنات لا يبعد قليلاً. وبدت كأنها لا تحسّ بالجوع. وقال لها بحذلقة:

- هل نذهب لنشتري قطائف؟

- لا.

- لماذا؟

- لا أريد. بعد قليل سنكون عند سالم. وسنأكل هناك.

- وإذن اسمحي لي أن أحمل معي القطائف.

- شأنك.

ومضيا في اتجاه الغرب. المدينة في غلواء. وليلى تحت إبطها محفظتها وهو يحمل قطائف ملفوفة. في بادئ الأمر كان الصمت يغلف عالمها. لاشك أن كل واحد منهما كان يتكلم في داخله. أما الآن فقد تساقطت الأسوار، واندلق الكلام كالشلال.

كانت ليلى بادية الفرح أخيرًا. قبل لحظة عندما كانا في باب المدرسة كانت عادية. ويبدو أن أحد تلامذتها ضايقها. ليلى، أنت تتقلبين بسرعة؛ تفرحين بسرعة وتغضبين بسرعة. أنت شبيهة بي.

- ليلى أين تقضين يوم الغد؟

- في البيت.

- اليوم كله؟

- نعم.

- ألا تخرجين؟

- لا.

- لماذا تجيبين بإيجاز.

- ...

ولم تجب. لم يعد هناك إيجاز ولا إطناب. كانت تنظر إلى بعيد. لوحة للإعلانات عُلقت عليها حروف لاتينية كبيرة وتحتها قنينة. ليلى هل أنت مشغوفة بالإعلانات؟ هل تحبين الدعاية؟

وحوّلت نظرتها إلى الضوء الأحمر الذي استطاع أن يوقف سيل السيارات بقوة خفية جبّارة. وقالت له:

- هيا تحرك. السيارات توقفت.

ووضعت يدها في ذراعه بحركة لا شعورية. واجتازا الممر المسماري. لم يكن حذرًا وهو يجتاز الممر إلى جانب ليلى. كل ما وعاه أن هناك إنسانًا آخر ضبابياً في داخله ينتبه لليلى. وفي الطوار خففت من سرعتها. وتوقفت قليلاً تنتظره – لأنه كان قد تخلف عنها بثلاث خطوات – وقال لها:

- المدينة مرة تمتلئ بالضجيج، ومرة تموت.

- إنها عادة في الساعة الخامسة تنطلق.

- وحتى في الثانية عشرة زوالاً.

- أجل.

وكان هناك شعور كبير يلح عليه. إنه بالنسبة لليلى طفل صغير تنقصه التجربة. وهو أكبر من ليلى بثلاث سنوات أو أربع، ومع ذلك فهي تبدو امرأة في الثلاثين ناضجة. ربما تجربة الزواج علّمتها الكثير. هو لم يتزوج ولم يتحمل مسئولية بعد.

أعلنت ليلى:

- لقد وصلنا.

- أخيرًا.

وكانت لفافة القطايف في يده تعرق. الجو ليس ساخنًا ومع ذلك فقد أحسّ بأنها تسبح في العرق. وتقدم ليلى بينما لبثت هي خلفه مطرقة الرأس تنظر إلى قدميها. ثم صعدا الدرجات. وجذب المفتاح من جيبه وفتح الباب. ثم دفع ليلى إلى الداخل. كانت صورة الفتاة الضاحكة ليست ضحكة تشفّ. إنها ضحكة فرح. ومضت ليلى ووضعت محفظتها فوق السرير. لم تضعها ولكنها ألقتها بقوة.

وقال لها بشعور طفل:

-ليلى، هل هذه الضحكة في الصورة تُعَبِّر عن تشفّ أم عن فرح؟

وأجابت بلا روية:

- عن فرح.

ولبثت عيناها معلقتين بها فكأنها لم ترها قط. وكأنها لم تدخل هذه الغرفة قط. وفتحت النافذة فدخلت كمشة من الهواء إلى الغرفة. وبدت الطريق مملوءة بالسيارات عندما اشرأب بو مهدي بعنقه. وخلف النافذة كانت السماء فسيحة للغاية. آه أيتها الآفاق الواسعة المجهولة. والتفت أخيرًا فوجد ليلى تنزع كعبها لتضع في قدميها خفي سالم، وقال لها:

- تعالي انظري هذه اللوحة خلف النافذة. السماء فيها إكبار وإجلال.

وقالت بأنها ستجيء لترى. بينما وقف هو مشدوداً في لحظة تأمل وذهول مستفيض. وأحسّ أن ركبتيه بدأتا تخونانه. وقال لليلى هل أقفل زجاج النافذة أم أتركه مفتوحًا؟ فاقترحت أن يتركه مفتوحًا. وأخذت لفافة القطائف، واتجهت نحو المطبخ لتعدّ القهوة من غير شك. ليلى لو كنت زوجة لي. ولكنك مع الأسف خائنة. كل ما فيك رائع إلا الخيانة. ليلى أنت ربة بيت رقم 1. وحوّل عينيه إلى الصورة. الفتاة لا تزال تضحك في سرور عارم. ثم تحوَّل بعينيه إلى السماء. بعض السحاب كأنه يزحف خلف النافذة، وسمع ليلى تقول من خلال ضجيج صامت:

- تعال الآن لتأكـل القطـائف. أنـا لا أحـب أن آكـل في الشارع.

والتفت إليها وخطى نحوهـا. ومـن أعـماق أعماقـه كـان يعبّر لليلى عن شعوره بأنها ربة بيت رقم 1، وأنها تـستطيع أن تُعيد صُنع العالم من لا شيء وأنها وأنها، .. إلخ.

13

انحلّ الإضراب هكذا بلا مقدمات. غير أنه لم يذهب إلى الكلية أمس أو اليوم. وفي الصباح مكث بـو مهـدي في البيـت حتى وقت الغداء. لم يفعل شيئاً ولكنه كان يفكر ويفكر. كان شعور عارم يجتاحه. شعور عارم بالاختناق. العالم لا يريـد أن يتغير. في بعض اللحظات يشعر أنه مركز العالم. لكني للأسف تمثال هش لا يساوي شيئاً. ظلّ يـدخن ويـدخن ويـستمع إلى الموْسيقى. أما الكتب فإن شعورًا نافرًا إزاءهـا مـا يَـزال يلـح عليه. ما معنى أن أقرأ؟ إن في الواقع تتجسد جميع الحقائق. لماذا أبحث عنها خارج هذا الواقـع؟ فالجـدران تمثـل أشـياء ذات قيمة بالنسبة إليه. وهذه الطاولة وتلك الصورة وذاك الطـلاء.

كل شيء في الواقع له قيمته الجوهرية الخاصة. كانت أفكار تدور في رأسه طيلة هذا الصباح. وأمسكه دوار عنيف. فلا السجائر تجدي ولا الموسيقى تجدي. وهكذا فقد تغلبت عليه الوحدة هذا الصباح. وبعنفوان كان ينتقض. وبعنفوان كذلك يرفض جميع هذه الحيثيات التي تحطمه، والتي تكاد تجعل منه إنسانًا لا معنى له. وبعد أن تناول غداءه كان قد قرر الذهاب إلى سالم. فهو لم يذهب إلى «المديرية العامة» أمس أو اليوم. قال له ذلك صالح عشية أمس. لم يذهب إلى العمل لأنه كان يستعد لإقامة أول معرض له. وكانت الفكرة في حدّ ذاتها مغرية.

وذهب بو مهدي إلى سالم ظهر ذلك اليوم فوجده نائماً. تحدثا عن المعرض، فأكد له أن جميع الإجراءات قد اتخذت الآن. وراح بو مهدي يجرّه من السرير لكي يدله على اللوحات التي سيعرضها. كانت كلها مكوّمة في المطبخ. وبدأ يقول هذه ستعرض وتلك لن تعرض. وجعل يفرز اللوحات وكان بادي التأثر كثيرًا. فكأنه لم ينم بما فيه الكفاية. وجرّه من يده وقال له إنه لم ينم فيجب عليه أن ينام الآن. فتضايق من كلامه. وقال بأنه يجب أن يبقى معه، فبقي معه فترة قصيرة من الوقت. غير أنه قرر في النهاية أن ينصرف. فقد كانت لديه رغبة ملحة لمشاهدة فيلم من أفلام الحروب. كانت هذه الأفلام تعجبه ولم يكن يدري سر إعجابه بها. وبعد مرور قليل من الوقت كان

بباب السينما وحجز تذكرة. ثم دخل وكان الفيلم لم يبدأ . كانت هناك موسيقى جاز تنطلق في قاعة العرض. ولم يكن هناك متفرجون كثيرون. القاعة واسعة والكراسي فارغة. كان اليوم يوم ثلاثاء. لا شك أن الذين جاءوا لمشاهدة الفيلم شبيهون به، لديهم أوقات فراغ كثيرة، أو هم على الأقل أعطوا لأوقاتهم صفة الفراغ. وكانت العاملة تنظم الجلوس على المقاعد الفارغة، وفي كل لحظة كانت تضرب كتفه ربما عن عمد لأنه كان يجلس في مقعد جانبي، فرأى أن يُغير مكان جلوسه وغيّره بلا إذن منها. وكان يتوقع أنها ستجيء بشخص ما وتقول له هذا مكانك فتغيره من مكانه. غير أنها لم تفعل طيلة العرض. كان الفيلم مؤلمًا إلى حد بعيد، وكان راضيًا عن ذلك. فقد وجد نفسه ينشرح انشراحاً لا حدّ له بعد مشاهدة الفيلم. هناك عدد عديد من الجنود الذين ماتوا، وهناك البطل الذي بقرت بطنه ومات أخيراً في مستشفى معلناً: «أن الحروب يجب أن تزول» وغيرها كثير من «المآسي» ومع ذلك كان يحسّ بمزيد من الانشراح. بل إنه طالما تمنى أن يكون جنديًا. أن يحمل الرشاش وينهال على هذا العالم المُغثي بالرصاص.

كان الظلام قد بدأ يسقط وكان كل شيء قد بدأ يغوص فيه، والمصابيح العمومية تغسل الأشياء والطريق والرصيف بسائل أصفر لزج. الليلة الآن قد حلّ. في الصباح كان يتألم من ثقل الأفكار، واحتدادها. أما الآن فإن رأسه فارغ. إن رأسه

يستعد لمزيد من الكتل الهوائية التي يجب أن يحشوها. وكان الهواء قد بدأ يلطف. الآن كل شيء سوف يتغير. هناك مسخ شامل لجميع المرئيات. في داخله عاطفة كبيرة تتضخم تجاه جميع هذه المرئيات. كان لا يحسّ بخطواته. فهي مقيدة تارة ومنطلقة أخرى. كان يشعر أنها مومياء انطلقت من متحف قديم في ضاحية المدينة. والناس تماثيل من الهواء. الناس مناطيد. وكان يمسح سائلاً لا وجود له على جبهته. لقد شعر بشيء بارد عليها. الناس دمى متحركة. وأنا غفل لا أفرح ولا أحزن. والبطل السينمائي قال وهو يحتضر «يجب أن تزول الحرُب». أما بو مهدي ففكر أنه يحب أفلام الحرب. ثم انطلق في سلاسل الظلام إلى هناك.. إلى بعيد. وكان مع ذلك مقيدًا.

14

جلس في مقعد خلفي. الأستاذ يتكلم بانفعـال.. الطلبـة روؤسهم ككرات من الرمل. والفتـاة التـي يـشتهيها أذعنـت أخيرًا قبل لحظات في مقصف الكلية. تحدثا. كانت الصدفة قد لعبت دورها. وكان الأستاذ يتكلم بانفعـال وكـان يـردد بـأن المبدأ الأول هـو علـة كـل شيء، وأن هـذا الكـون، وأن هـذه الأشياء جميعها إنما هي.. ولا يسمع شيئاً . الفتاة التي يـشتهيها لم يـسبق لـه أن اسـتمع إليهـا وهـي تتحـدث . صـوتها دافـئ (اكتشف ذلك فيما بعد). وجد أن: ألفاظها مقطـع مـن أغنيـة رومانسية تحمل شتّى الأحزان.. ثم. المبدأ الأول هو علـة كـل شيء، وعند سبينوزا أن الله علّة لا تنفصل عن المعلول. وكان

الأستاذ متأكدًا من أنه يقول شيئًا ذا أهمية. والرؤوس مقطوعة وموضوعة فوق جثث عفنة. والمقعد مثل سفود.

- ما أسمك؟

- ليلى.

يا للمصادفة! هناك ليلى وهنا ليلى. لقد وقعت في التباس إذن. أرجو أن تغيري هذا الاسم. وقال:

- أنا أسميك نانسي.

- لماذا؟

- لأن الاسم يعجبني.

- وأنا يعجبني ليلى.

- إن كثيرًا من الفتيات يحملن نفس الاسم.

- وماذا في ذلك.

- أنت لا تشبهينهنّ.

كانت تشرب قهوتها أمامه بينما كان ينفث جداراً من الدخان بينه وبينها. كان وجهها يبدو من خلال الدخان ساديًا بشعًا مشوهًا. وكفّ عن التدخين. وهو لا يريد أن يرى وجهها هكذا مشوهاً. فهو وإن كان لا يحب وجهها أكثر من جسمها، فإنه لا يريد أن يراه مشوهًا، ساديًا، وبشعًا. تضع

ساقًا فوق ساق. وكان هو يحترق في داخله.

ثم..

- كنت تثير انتباهي قبل أن نتعارف. هل تقبل الصراحة؟

وأخذ يعيش لحظة من الاضطراب. ماذا يقول؟ كانت الكلمات قد انعقدت في لسانه. وفي حلقه تكوّم دبق لزج ومرّ.

- وأنت أيضًا كنت تثيرين انتباهي.

- إنها الصدفة. كيف لم نتعارف قبل اللحظة؟

لكن العالم يا نانسي هكذا، لا يسير في اتجاه الرياح. وكان الأستاذ يتكلم بانفعال. أما بو مهدي فلا يسمع شيئاً. العلة والمعلول لم تكونا تعنيان شيئاً بالنسبة إليه. أما الرؤوس فهي مقطوعة ومثبتة فوق جثث عفنة. وصوت شاحنة بعيد ينطلق إلى القاعة فيدغدغ آذان هذه الرؤوس المقطوعة.

ثم..

لا تحولي ساقيك هكذا يا نانسي. إنك إذ تفعلين تمدين سلكًا من الكهرباء في جسمي كله. لكن يجب أن تنسى الرجل المتزوج. لماذا بالضبط رجل متزوج وله أطفال؟ أنت مسؤولة يا نانسي.. نانسي أحبك وأشتهيك معاً. ثم أخذت الرؤوس

المقطوعة تتحرك فوق الجثث، وألقت الأرض بموتاها. وها هم الموتى يدفنون أمواتهم.

وقف ومضى باتجاه الباب. يجب أن نلتقي بعد المحاضرة فإياك أن تنسى.. لكنني لا أستطيع أن أنسى يا نانسي. وكانت نانسي واقفة بالباب. كانت تحادث صديقة لها. هل تتحدثان عني؟ من المحتمل نعم ومن المحتمل لا. ثم التحق بها وقدمت له صديقتها بفتور:

(- كان يجب أن يمضي وحده.

- ولكنها ترفض . إنها ترفض دائمًا.

- من غير شك أنها مخطئة وستعرف خطأها يومًا ما. اسمحي لي سأودعك الآن).

وودعتها فودعها بو مهدي بدوره. وكانت تسأله عن المحاضرة. كانت خطواتها تسرع بالرغم من أنها في المنحدر. وعندما وصلا الرصيف المحاذي للنباتات المنتشرة بفوضوية كانت قد بدأت تلهث. هكذا بسرعة بدأت تلهث. وقالت نانسي.

- يحتمل أن يكون هناك إضراب غدًا.

- هل أنت متأكدة يا نانسى؟

- لا. دعي لي حق تسميتك بهذا الاسم فهو ملائم. إنه يعجبني.

- إن خيالك واسع. أنت لا شك تعيش على الأوهام.

وكانت ابتسامة خفيفة تطفر على شفتيها. وكان شعرها الأكرت قليلاً لا يحركه الهواء. خشخشة الأشجار فقط كانت تدق طبلة أذنيها أثناء لحظة الصمت. الجو بارد شيئاً ما. وتعمد أن يتكئ عليها.

(نانسي أنت غريبة الأطوار. لماذا رجل متزوج وله أطفال. النهاية أبدًا ستكون لصالحنا).

- هل تهتمين بالسياسة؟

- أجل.

- معنى ذلك أنك منتمية؟

- شيوعية.

- أنا لست شيوعياً.

- أنت طفل.

هل يكفي أن تكون المرأة شيوعية لكي لا تكون مغرية. لا يا نانسي. أنت مغرية. غير أن إغراءك جدي. وكانا قد بلغا السور القديم الذي يفصل المدينة إلى جناحين. حركة السير

كانت قد بدأت تحتد. ونانسي تتكلم مرة وتصمت أخرى وهو ذاهب في التفكير. وقال بو مهدي خلال صمتها:

- نانسي، هل لك هواية؟

- نعم.

- ما هي؟

- الشيوعية.

وبدأ يضحك فلاحظ تضايقها. ثم كفّ عن الضحك. أنت قاسية ورائعة. لبؤة ضارية.

- أنت تهوين الشيوعية فقط.

- نعم.

- كم هو شيء محزن.

- محزن لماذا؟

- لست أدري. ولكن رأسي يقول لي ذلك.

- إن رأسك خاوٍ.

ثم لم تكمل حديثها. ولم يجد الجرأة ليستحثها. وكان السور الذي يفصل المدينة إلى جناحين ينحدر وسط غابة كثيفة من النباتات، ووسط كتل كبيرة من الطحالب الخضراء.

وبمحاذاته كانت الطريق التي يحفها طوار من الرمل والحصى تمتد إلى أسفل. وقالت نانسي شيئاً لكنه لم يسمعها. كان يتأمل السور. وطلب منها أن تعيد له ما قالت، فتمتمت:

- أنا الآن ذاهبة لزيارة صديقة.

قال:

- متى نلتقي إذن؟

- في الكلية.

وأضافت بانكسار:

- هل تسكن قريبًا من هنا؟

ضحك ضحكة أقرب إلى الابتسام. وأكد لها أنه يأخذ القطار كل يوم إلى مدينته الصغيرة التي تبعد عن العاصمة كيلومترات قليلة. وبدا على وجهها شيء من الاستفهام. علامة استفهام امتدت ثم امّحت.

- إذن أنت لا تسكن في الرباط؟

- كلا.

وبيّن لها أنها إذا كانت ترغب في زيارة مدينته فهو رهن إشارتها. وشكرته بابتسامتها الجادة. وكان ينظر إلى ساعته. الوقت حان. قال في نفسه ويبدو أن نانسي قد أدركت ما يجول بخاطره.

ثم قالت:

- يبدو أنه آن الوقت كي أودعك.

ومدّ لها يده دون أن ينبس بكلمة. وأطلق خطواته. ومضى في اتجاه القطار. أما نانسي فقد حوّلت اتجاهها نحو الجهة المعاكسة. التفت لفتة أخيرة فوجدها تنظر إليه. كان جسمها الرائع يوغل في الاختفاء. وفي زاوية الشارع كانت قد غابت. ولم يكن يصدق عينيه. نانسي إلى اللقاء. وكان القطار يصفر صفيره المعهود، وهو يصعد درجات سلم القطار. وفي رأسه كانت هناك أفكار تعلو وتهبط في احتداد «نانسي جميلة.. نانسي رائعة – إلخ إلخ».

15

«أم سالم لا تزال تعاني».

قال ذلك صالح لعبد الرحمن. فردّ هذا الأخير من خلال اختناق آخذ به: «إنها تعذبه».

«لاشك أنها ستنتهي».

وكان عبد الرحمن يسوّي الأوراق في يده قبل أن يشرع في اللعب. ثم أخيرًا أعلن:

«أنا أيضًا زوجتي تكاد تنتهي».

«مريضة»؟

«أجل. المرض في احتداد».

كان بو مهدي يشعر وهو ممدّد على السرير بألم ثقيل في رأسه. كانت الكلمات تتسرب خلال أذنه بلزوجة وفرقعة ميتة. «ومع ذلك أنت لا ترأف بها. أنت وهذا الوغد زوجاكما تتألمان من أجلكما وأنتما مستهتران».

أخذ يلعن هذه الأفكار التي بدت له صبيانية خليقة بطفل. واسترسل عبد الرحمن:

«أنا أمس لم أنم. كنت أعاني».

«ما دامت هي الأخرى تعاني. طبعًا».

قال صالح:

«استيقظ أنت. تعال نلعب».

حرّك بو مهدي جسده المهدود ببطء وألم. زحزح الكرسي وجلس. شرعوا يلعبون ثلاثتهم. أثار انتباه بو مهدي ساعة صالح. كانت بلا عقربين. قال له:

«أنت تضع ساعة بلا عقربين».

ابتسم وقال: «سأصلحها. لقد تشاجرت».

«هل سقطت؟».

«أجل».

امتلك بو مهدي إحساس كبير بالعدم. هـذه الـساعة لهـا تكتكات ولكن لا معنى لتكتكاتها. إنها لا تهـدف لـشيء عـلى الإطلاق. كان يضم الخادم إلى الملكة، ثم إلى الملك. وقال عبـد الرحمن:

«ألا تلعب؟».

رمى بو مهدي بورقة، في حين كان هناك كلام يدور بـين صالح وعبـد الـرحمن ولكنـه لم يكـن ليـستطيع أن يتفهمـه. لم يسمع شيئًا. كـان في داخلـه تهـويم. كانـت عينـاه مـا تـزالان مركزتين في الساعة. الهواء لافـح يـدخل مـن النافـذة. كومـة الورق بدأت تكبر وسط الطاولة. وفي النهاية أعلن صالح أنـه ربح الجولة الأولى.

قال بو مهدي:

«إنك تحسن اللعب».

«لا. فقط الحظ ساعدني».

«كيف يساعد الحظ مرارًا؟ أنت دائمًا تربح الجولات»؟

قال عبد الرحمن:

«هناك الحظ وهناك الذكاء».

دخل سالم فجأة وهم يلعبون. منذ ساعتين كان قد ذهب لزيارة أمة المسلولة في الدهليز المظلم. كان سالم حزينًا. وكانوا جميعًا يلعبون الورق دون أن ينتبهوا له. فقط بو مهدي هو الذي انتبه، وكان الآخران منشغلين بلعبهما، ومن قبيل المجاملة قال لسالم وكان قد تهالك على السرير:

«كيف حالة أمك؟»

كان بو مهدي يسوّي الأوراق في يده. شعر بأن سؤاله كان مجانيًا. ربما شعر سالم أيضًا بذلك، ومن خلال ألمه المعهود قال، وهو يحك شعر رأسه الوسخ:

«أمي انتهت».

لم يفهم بو مهدي شيئاً وأكد لسالم أنه لم يفهم شيئاً ولا يستطيع أن يفهم. كانت حواس سالم متوترة وغليانة، وبفتور قال:

«يجب أن تفهم».

كان الآخران لا يزالان يلعبان. إنهما ليسا من هذا العالم «أين الإنسان فيكما؟» ودفع بو مهدي عبد الرحمن.

«ألا تسمع؟».

«دعني ألعب».

عطل بو مهدي اللعب. كانت يد صالح ذات الساعة التي بلا عقربين ملقاة فوق الطاولة.

«صالح، عبد الرحمن، ألا تسمعان؟ أم سالم انتهت».

لا بدّ أنهما شعرا بألم. ارتخت أيديهما. وتكومت الأوراق فوق الطاولة. وقف عبد الرحمن وتمشى وسط الغرفة وهو يدمدم. بينما لبث صالح جالساً لا يريم. كان رأسه مطرقًا ولم يقل شيئاً. بدا سالم عاديًا جدًا. حزنه لم يكن أقل أو أكثر من حزنه الدائم. «ألم يؤثر فيك موت أمك، هل أنت أيضًا وغد؟ عفوًا صبياني». تكلم صالح وتكلم عبد الرحمن وكذلك بو مهدي وقالوا له جميعًا أن يصبر. سالم جالس فوق السرير. ارتخى نهائيًا وألصق عينيه بالسقف. كان بومهدي يتخيل أن الدموع تنحدر من عينيه كالشلال. غير أن شيئاً من ذلك لم يكن. فقط كان حزينًا. كان عاديًا. أعلن بو مهدي بتحفظ: «العالم هكذا. نجيء بلا ميعاد وننتهي بلا ميعاد».

كانت السماء جامدة منتشرة خلف النافذة. بدا الهواء وكأنه قد توقف عن الحركة.

اتكأ عبد الرحمن على الجدار. الطلاء باهت. الصبية في الصورة تضحك دائمًا بسرور أو شماتة. لم يكن أحد يدري. عينا سالم كانتا مغلقتين الآن، ربما بتأثير الألم. تحرك عبد الرحمن

واتجه نحو النافذة ليغطي وجه السماء بقامته الفارهة. في النهاية عاد إلى مقعده وأعلن ألا حول ولا قوة إلا بالله.

كانت زوجته هو الآخر مريضة. قيمة المرض الآن تبدو واضحة أمام موت محقق.

انتصب سالم وقال لصالح الذي كان يحدّق فيه بإشفاق. في عينيه كان شقاء. كان قلق. كان برم. كانت أشياء أخرى.

«هل معك سيجارة؟».

«نعم».

بينما كان صالح يفتش عن العلبة، كان عبد الرحمن قد استجاب لسالم. وكان هذا الأخير قد بدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا. ثم وهو يمرّ بعينيه على صورة الصبية الضاحكة اتجه نحو النافذة حيث لبث طويلاً ينظر بعينيه إلى الشارع وإلى البنايات الجامدة. دخان كثيف كثيف من سيجارته. قام بو مهدي واتجه إلى المرحاض. كان ضوء شمس الظهيرة ينعكس على جدار مقابل. الرائحة بالمرحاض نتنة. جذب بآلية مقبض الماء ليغسل النتانة. التحق بالثلاثة. كانوا جميعًا جالسين الآن. سالم أيضًا جالس على السرير. وضع رأسعه بين كفيه. كانت أصابع يديه تتخلل شعره. قميصه الأبيض المغسول لم يكن بلا ربطة. قال عبد الرحمن:

«هل توفيت الآن؟».

«لا. البارحة. ودفنوها، أيضًا، البارحة. لم أزرها منذ يومين».

«يؤسفني أن أقول لك إن الموت في بعض الأحيان يكون راحة».

«لماذا تتأسف، هو كذلك بالطبع. راحة ممتدة إلى ما لا نهاية». كان وهو يتلفظ بهذه الكلمات يضرب بمقدمة حذائه الأرض ضربًا لطيفاً. أخرج بو مهدي علبة السجائر من جيبه، وقدم لسالم سيجارة وأشعلها له. كان صالح لا يزال عازفاً عن الكلام ولا يزال يحدّق في سالم بإشفاق.

قال سالم: «يظهر أن جو الغرفة خانق. أقترح جولة لاستقبال المساء في بار».

أيّد الثلاثة قراره. في الشارع انطلقوا جميعًا يحملون ألماً، يحملون حزنًا وضياعًا. اتجهوا صوب المقهى. كانت الكراسي فارغة. والعالم ساكن سكون المستنقع. لم يكن العالم يأبه بشيء.

16

«نانسي يا سالم، هذه نانسي التي حدثتك عنها»

أجاب سالم بحذلقة:

«كنت أتخيل صورتها هكذا».

ضحكت نانسي وقالت:

«لاشك أنه وصّاف ماهر».

كانت تعني بو مهدي ثم أضافت:

«أنا مسرورة بمعرفتك. سالم، هذا الوغد، حدثني عنك كثيرًا. أنا أحب الفنانين».

قال سالم لبو مهدي:

«صديقتك جميلة. أنت سعيد ومحظوظ». لم يجلس سالم بعد. حرّك له بو مهدي الكرسي فجلس. قالت نانسي:

«شكرًا، يبدو أنك طيب أكثر من اللازم». تذكر بو مهدي أن سالم في حاجة إلى أن يشرب شيئاً.

كان المقهى هادئاً، تحت الشمس الساخنة، ومن بعيد، كان البحر يهدر. المقهى الرصيف الطريق الرمل البحر. عينا سالم كانتا تبحثان بين حذاءيه عن شيء لم يكن له معنى. هناك فوق الرمل، الهواء يتضخم وينفجر. كان بو مهدي يتخيل ذلك. لم يكن متيقناً من وجود شيء ولكنه مع ذلك كان يتخيل.

جاء الجرسون وطلب سالم بيرة. قالت نانسي مرة أخرى: «أنا مسرورة جدًا بهذا اللقاء يا مسيو سالم».

ورفع سالم رأسه. غرس عينيه في عينيه المتوحشتين «أنا كذلك. على كل حال نشكر الذي مهد لنا هذا اللقاء». استيقظ بو مهدي من شروده إذ عرف أن الأمر يتعلق به.

«إنها.. أنت فنان».

«ما وجه المقارنة إذن. تبدو لي في بعض الأحيان تافهاً يا (بيبي)...»

ضحكت نانسي وطلبت رأي سالم في الموضوع، فقال هذا

الأخير كلامًا لم يسمعه بو مهدي، بحيث ضحكا هما ولم يضحك هو.

قالت نانسي:

«هل أنت غاضب؟».

«أبدًا».

«لماذا لا تضحك».

«لأنني لم أسمعكما».

«أين كنت إذن؟».

«في البحر».

«أنت تحلم من غير شك».

قال سالم:

«كثيرًا ما يحلم في اليقظة، هو يتهمني بذلك» ووجّه كلامه إلى بو مهدي.

«ها قد تبين لك أنك مخطئ. أليس كذلك». استنشق الهواء بعروق أنفه جميعها وضغطه بأعصابه، ثم لفظه أخيرًا. وقال:

«أنت لا تفهمني في بعض الأحيان يا سالم».

ضحك سالم بنرفزة بينما طغت ابتسامة نانسي على شفتيها وهي تستلذ النظر إلى البحر. عيناها كانتا في البحر. قال في الأخير:

«لماذا تلك الباخرة لا تتحرك؟».

قال سالم:

«إنها تنتظر».

«تنتظر ماذا؟».

«أن يسمحوا لها بالدخول إلى الميناء».

«من ؟».

«هم».

«ماذا تقصد؟».

«ألا تفهمين؟ رجال الميناء».

قال نانسي:

«أنا أفهم، لكن من طبيعتي محاولة الإغاظة. لا تؤاخذني مسيو سالم».

«أنت لم تقولي شيئاً يستحق اللوم».

كان بو مهدي يستنشق الهواء بعروق أنفه جميعها. البحر يمتد إلى ما لا نهاية. السماء تكوّن مه خطأً أفقيًا يبدو لبو مهدي

أسود اللون. الأمواج تصطخب لتموت في النهاية فوق الرمل. الشمس تنثال أشعتها بحرارة. قليل من الناس يعبرون. الباخرة ميتة في الأفق. قطعة سوداء على شكل لعبة من الورق المقوّى مركزة في لوحة. قال بو مهدي لنانسي: «نانسي هل تحسنين السباحة؟».

«كالرصاص».

«لماذا؟ يجب أن تتعلمي».

«أنا لم أنشأ في مدينة شاطئية».

«أليس في مدينتكم مسابح؟».

لم تحاول أن تجيب. البريق في عينيها قد خبا. ربما الماء الأزرق، ربما البحر العريض اللانهائي يذكرها بشيء. كان الحزن في عيني سالم لا يزال. وكان يشرد بينما نانسي قد استغرقت في جريدة فوق الطاولة. كان شعر سالم الأملس تحركه الريح. في عينيه كان هناك رماد أزلي. كانت هناك نار خابية، كانت هناك صرخات أليمة تنطفئ في أغوار سحيقة. وكان ينفض الرماد من سيجارته التي كادت أن تنتهي. وقال بو مهدي: «نانسي».

رفعت نانسي عينيها عن الجريدة بتثاقل. كانت ابتسامة في حيز ضيق من فمها. أكمل بو مهدي:

«إن سالم سيفتتح معرضًا».

«لقد قلت لي. هل نسيت؟ لكن متى؟».

شعر أن السؤال لا يعنيه فأوكل الإجابة لسالم وقال هذا الأخير من خلال الدخان الذي ينبعث من بين شفتيه:

«ربما بعد أسبوع».

قالت نانسي:

«أنا لم أرَ رسومك. بي حاجة ملحاحة لـ..».

قال بو مهدي بالنيابة:

«سترينها قريباً».

كانت الشمس تتغلغل في أجسامهم. وكان الفضاء واسعًا وجامدًا. الهواء يتقلص ويتمدد. شعر بو مهدي أن به جوعًا قويًا. شعر أنه في حاجة إلى أن يأكل شيئًا. كان يتنفس الهواء بسهولة. وتخيل أن الرذاذ الذي يتطاير فوق الصخور هناك يقفز فوق صدره. وقال لسالم وهو يشير إلى سيارة واقفة قرب الطوار المقابل:

«إنهم سيّاح من غير شك. انظر».

قال سالم:

«ألمان؟».

صححت نانسي:

«لا، أعتقد. إنهم هولنديون».

«كذلك».

وافقها بو مهدي بدوره. لبثوا ينظرون إلى الرجل والمرأة وهما يروضان جسميهما في الهواء. لا شك أنهما تعبا من السفر الطويل. وكانت نانسي قد كفّت عن النظر إليهما. وانشغلت في الأخير بالنظر إلى الجريدة. بينما لبث هو يتابعهما بنظراته حتى اتجها أخيرًا إلى المقهى الذي يجلسون فيه. أشعل سالم سيجارة أخرى. عيناه منغرستان في البحر. وبدا لو مهدي أن سالم قد بدأ يتجاوز حزنه على أمه شيئًا فشيئاً. كانت هيئته الأنيقة تناقض هيئة وجهه الحزين القلق. بحث بو مهدي عن السجائر في جيبه فلم يجدها. تناول علبة سالم وأشعل لنفسه سيجارة. وقال لنانسي وهو يمدّ لها العلبة:

«هل تدخنين»؟.

تناولت السيجارة بشكل مثير. كانت قد أثارته حقًا. أشعل لها سالم. استمرت تنظر إلى الجريدة وتدخن. كانت في استغراق تام. عيناها كانت تنتقلان بإمعان بين السطور. قال بومهدي:

«نانسي أنت غريبة؟».

ضحكت وكأنها لم تكن تقرأ.

«أنا غريبة؟».

«نعم».

«لماذا؟».

«لا أستطيع أن أجد السبب».

«أنت تطلق أحكامًا تافهة».

كانت سحابة ضعيفة من الدخان تقف حاجزاً بينهما.

كان يود أن يقول لها أنت تدخنين بشكل مثير، لكنه لم يجد الجرأة. قال لها في الأخير:

«لم تقولي أي شيء منذ أن جلسنا».

«ماذا أقول. لقد تكلمت بما فيه الكفاية».

ونظرت إلى سالم. كان هذا الأخير مستغرقًا في النظر إلى بعيد. وقال بو مهدي إن سالم ليس معنا. فأدار هذا الأخير رأسه وقال:

«أنا معكما. ماذا تريدان؟».

«نانسي لا تتكلم».

«إنها تقرأ».

كانت قد ارتخت كلية إلى الخلف، وبين أصابعها كانت السيجارة تنتهي بمأساوية. وفي عينيها كان هناك ارتخاء، وكان تراب.

«نانسي، إن في عينيك طينًا».

«أنت أحمق. ماذا تقول؟ أنت تتكلم بتفاهة».

قال سالم:

«وهو في عينيه حجر».

قالت نانسي:

«يجب أن نؤدبه نحن الاثنين. إنه من غير شك في حاجة إلى ذلك».

انطلقت تضحك من خلال السعال. ثم غيَّرت جلستها. وسرحت نظراتها في الأفق، حيث البحر يمتد، وحيث اللانهاية أزلية وحيث أشياء تولد باستمرار. وقال بو مهدي إنه يجب أن ينصرفوا.

وقالت نانسي:

«إن الجلسة هنا ممتعة. الهواء البحر السماء. كل شيء جميل».

وقال بو مهدي:

«أحب البحر السماء الهواء».

مرّ في نفسه «أحبك».

كان التعب قد بدا عليهم جميعًا. كانت الشمس حارة والسماء زرقاء جيملة. كان للبحر هدير خافت كأنه في احتضار. والمدينة كانت رابضة تحت ثقل كابوس وهمي.

17

صعدوا درجات سلم العمارة . كانوا الآن في الغرفة. هناك تحسينات طرأت. بعض الصور عُلقت من جديد. صور لفنانين وممثلين سينمائيين مشهورين. قال بو مهدي:

- سالم، أين صورة الصبية التي تضحك؟

- مزقتها.

- لماذا؟

«انظر يا أعمي».

نظر حيث أشار. كانت في زاوية الغرفة في مكان لم يخطر على بال بو مهدي أن تُعلق فيه هذه الصورة. وفتح النافذة

الوحيدة في الغرفة. أشعة الشمس تسربت فجأة بفضول إلى الداخل. كانت نانسي قد جلست وألقت بالجريدة فوق الطاولة. نظراتها كانت معلقة بالجدران تتأمل الصور. كان بو مهدي يلاحظ أنها فاغرة فمها. وكان سالم منشغلاً بنزع حذاءيه ليضع في قدميه الخفين اللذين تأبي ليلى إلا أن تضعهما في قدميها.

قال سالم:

- سأهيئ القهوة.

قال نانسي:

- أنا الذي سأهيئها.

- أنت ضيفة.

- أنا امرأة.

وقفت نانسي. جسم رائع حقًا. وجهها ليس جميلاً إلى الحد الذي يستطيع معه المرء أن.. جسم رائع حقًا.

لذة.

جسم.

شهوة. جسم رائع حقًا.

(اليوم فقط أستطيع أن أقرر في أمرك يا نانسي شيئاً) ثم بدا بو مهدي لنفسه تافهاً وذا أوهام.

(أنا في بعض الأحيان حقير. أعتقد في أفكار ليست ذات قيمة. مركز العالم أنا مثلاً. لكني لا أملك شيئاً من الجرأة والصمود).

كان سالم قد لحق بنانسي في المطبخ. وعاد بعد أن تركها وحدها.

- صديقتك ربة بيت رقم 1.

- هل تعتقد ذلك؟

- تعال انظر إذا شئت.

حاول بو مهدي أن يقوم ليتجسس عليها في المطبخ. ولكنه عزف عن الفكرة. إنها ليست لائقة عل كل حال. نانسي امرأة ورجل في نفس الوقت. هي قمينة بكل شيء. يجب ألا أكذب هذا. هي امرأة رائعة.

رائعة. لذة!

جسم.

شهوة. هل كل شيء. كل شيء.

18

يجوس بو مهدي في المدينة وحيدًا كحيوان خرافي. في البيت حزن. ألم.

شقاء وحزن. صمت.

(منذ شهور لم يتناول كتابًا. فقط يستمع لمقطوعات مؤثرة من الموسيقى. لا أقرأ شيئًا على الإطلاق لأن ذلك لن يفيدني. طلاسم. غفل. أشياء لا تعني شيئًا).

شعور بالغموض يُلِح عليه وهو يجوس في المدينة. الجدران عليها طلاء صامت. يتحرك بو مهدي الآن بلا إرادة. يتصفح هذا الشيء أو ذاك. شعر من كثرة المشي والنظر أن

عينيه قد تعبتا، وأن قدميه قد تعبتا كذلك. اجتاز أرصفة عديدة. وجلس في الأخير على إفريز مقهى. كان الكلام، والموسيقى، والبنات.

- هن - يعبرن وأعينهن في السماء.

في البيت كان قد تيقن من أنه لا شيء. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكتشف فيها هذه الحقيقة. ربما تكون المرة المليون. كان يؤكد لنفسه أن الناس لا يستطيعون أن يشعروا بقلق موجود ومتأصل فيهم. ولكن من الذي يستطيع؟

(أنا وحدي أتفرد بهذا الاكتشاف).

كانت قدماه تسيران بلا إرادة في اتجاه المقهى. كان بائع صحف يحاول أن يعرض عليه. انصرف الصبي في الأخير، ومشى بو مهدي متهالكاً فوق الرصيف. اجتاز القنطرة التي توجد وسط المدينة، والتي تمتد تحتها سكة القطار. انتابته رغبة في أن يمس الحاجز الحديدي الأملس. كان يفعل ذلك أيام الطفولة. للحاجز نعومة طرية. لطالما حاول أن يُلبي هذه الرغبة وهو ذاهب إلى المدرسة ذات صباح بارد، لكن البرد القارس كان يمنعه من ذلك. لكن الآن لم يعد يجد أي متعة في لمس هذا الحاجز، كما لم يعد يخاف البعد بين علو القنطرة وانخفاض السكة الحديدية.

بلغ المقهى. كانت رؤوس مقطوعة فوق الطـاولات، وفي فم كل رأس كوب مليئة أو نصف مملـوءة، وأحيانًـا، فارغـة. انتحى زاوية، سَرَّح نظراته فوق الشارع والبنايـات القـصيرة. صومعة المسجد تختفي وراء سحابة من دخـان معمـل مجـاور. طفر لذهنه منظر السجن الموجود بـالقرب مـن المسجد. ثـم تعجب لهذا التصميم الغريب الذي تم بالصدفة. مسجد يُقـام قُربه سجن.

لقد كان المجرمون والمؤمنون على السواء.

«ماذا تشرب».

كانت الطاولة حمراء جامدة أمامه.

- قهوة.

- باللبن أم سوداء؟

- سوداء.

- دائما سوداء.

- أجل.

انصرف الجرسون في النهاية، وعاد بفنجان قهوة سـوداء. كان في عينيه خبث.

امتد ضجيج السيارات في الطريق. سـيل لا انقطـاع لـه. وتنبه بكامل وعيه. غير أنه عاد لوحدته. وجعل يرشف القهوة

بتلذذ واستغراق. أغنية رتيبة تملأ الجو. وفي رأسه مطارق. كان يرشف بهدوء ورتابة. قليل من المسرة المزيفة في قلبه الآن. وبعيدًا ماتت الشمس وقد صبغت كل شيء بصفرة مشربة بالحمرة. انجلى الدخان عن صومعة المسجد. تذكّر لحظتها وليس يدري لماذا – ليلي. منذ أسبوعين لم يرها.

وتساءل مع نفسه هل تكون نانسي قد عوضتها في قلبه؟

وبدأ يفاضل بينهما. في الختام، انتهى إلى أن ليلى رائعة وأن نانسي رائعة كذلك، ثم خطر له أن يقدمهما إلى بعضهما. هذه صديقة في الجامعة، وهذه معلمة رفيقة الصبا. ثم لا شيء آخر. وأكد لنفسه أنه لابد مخطئ فيما يفكر فيه.

ظلّ جالسًا في المقهى. وكان الظلام قد بدأ يتساقط ثم قرر في النهاية أن يذهب إلى سالم. وعندما التحق به وجده في أحضان مومس. وعندما رآه سالم قفز من الفراش وعانقه. خمن بو مهدي أن الآخر لا بد أن يكون قد شرب كثيرًا. لكن رائحة الخمر لم تكن تفوح من فمه. وتعجب لهذا التحول الذي بدأ يطرأ على حياة سالم بعد وفاة أمه.

قال سالم:

- ألم تسمع شيئًا؟

- لا.

- أبدًا؟.

- أبدًا.

- انتهت الإجراءات بصدد إقامة المعرض.

- متى؟

- اليوم.

- أعني متى ستقيمه.

- بعد ثلاثة أيام.

- سأقول لنانسي.

- لقد قلت لها.

- يجب أن تعرض أروع أعمالك.

- بالطبع. تمامًا.

وتثاءب سالم فتثاءبت صديقته. وشعر بو مهدي أنه سوف يتثاءب بدوره. وفعل ذلك رغم رفضه الملحاح للعملية. كان مرغماً من غير شك.

كان الظلام خلف النافذة يتقلص تحت تأثير الضوء العمومي في الشوارع. وقال لسالم الذي كان يعرّض وجهه للفحات الهواء الليلي عند النافذة.

- سالم يبدو أنني.

- لا أبدًا. يمكنك أن تبقي معنا.

وحوّل بو مهدي عينيه بسرعة إلى وسط الغرفة وركّز نظراته بوجه الصديقة التي كانت تستمتع لحديثهما. استنتج أنها كانت متضايقة من وجوده. ثم نقل نظراته إلى الصور على الجدران دون أن يقول شيئًا.

بحث بعينيه عن صورة الصبية.

كانت لا تزال تضحك.

أسرع بو مهدي في هبوط درجات السلم. كان يتدحرج على الرصيف وأخذ يقفز في الهواء بتراخ كسكير. أخذ يحرك يديه وجسه بطريقة غريبة مجنونة. توقف في النهاية وبحث عن أفكار في رأسه. لكن لم تكن هناك أفكار. ثم عبر الساحة الكبيرة وانحشر في جموع من الناس.

19

في باب الكلية رأى بو مهدي نانسي مع إحدى زميلاتها. كانت ترتدي بنطلونها الأحمر الذي يجعلها رائعة. وتساءل هل يذهب إليها أم يتركها ريثما تفارق زميلتها؟ التزم في الأخير الحل الثاني. قفز درجات المقصف ودخل. طلب قهوة وكعكًا. جلس وحده في حين كان الطلبة منشغلين بأحاديث لم يكن يسمع منها شيئًا. جعل يرتشف محتوى الكأس في يده. السائل الأسود كان يسري في دمه كالسم.

وكانت هناك فتاة جميلة واقفة أمامه. قالت لزميلة لها:

«إنه فارغ وتافه».

تساءل بو مهدي عمّن يكون هذا الفارغ التافه. هل هو أم هو الآخر الغاضب؟ وفكّر في تفاهة الآخر لأنه ربما كان واثقاً الآن من نفسه، ولا يدرك بتاتاً أنه فارغ وتافه.

أطلّت نانسي من الباب. لم تكن وحدها كما كان ينتظر، بل كانت مع زميلتها الأولى. وعندما رأته أسرعت إليه، وهي تقول لرفيقتها كلامًا. اهتز داخله شعور عارم، شعور من اللذة.

كانت نانسي في بنطلونها الأحمر تبدو كملاك.

- متى وصلت؟

- الآن فقط.

- نعم. الآن.

بعد لحظة صمت.

- هيا تفضلي. وقولي لصديقتك أن تتفضل.

- إنها ستنصرف.

جذبت الفتاة نانسي من ذراعها، وعندما ابتعدتا عنه، قالت لها كلامًا ثم تركتها. ورجعت نانسي تختال.

رمت بنفسها أمامه، ثم قالت:

- كيف حال سالم؟

- جيدة.

- هل أوشك أن يفتتح معرضه؟

- يوم الخميس القادم. هل تحضرين؟

- سأحاول أن أحضر.

كان بو مهدي يشعر بقليل من الألم في بطنه. وكان قد أتى على فنجان القهوة بأتمه. وفكر أن يطلب فنجانًا آخر. كان يحسّ بثقل في رجله اليمنى. صمت داخلي.

رنين أصم.

تقوقع.

وضحكت نانسي بهستيريا لأنها تذكرت شيئًا.

وقال بو مهدي دون أن يهتم بضحكتها:

- هل حقًا تحبين رجلاً متزوجًا؟

سؤال لم يكن بلا مقدمات وربما لن تكون له نتائج. كانت نانسي عادية تنظر إليه. مطت شفتيها في لامبالاة ثم قالت:

- لماذا هذا السؤال؟

- سؤال يهمني بقدر ما يهمك.

- هل تريد إذن جواباً.

- نعم.

- لكن قبل أن أجيبك. أجبني أنت على هذا السؤال: هل تعتقد أنك تحبني؟

- لست أدرى.

- أريد جوابًا حاسمًا يدل على شخصية.

أخذ بو مهدي يفكر في إحراج. ثم حاول أن يفرض الجواب.

- نعم يا نانسي. أنا أحبك.

- أنت تحبني. هل هذا صحيح؟

لم يجب، بل أخذ يحدّق فيها لعلها تعثر على جواب في عينيه. لكنها أكدت فجأة.

«أنا أحب المتزوج. وقد لا أحبه. مع أني مع الحرية الجنسية. هل تفهم؟».

ثم نهضت وودعته. غادرت المقصف. لبث وحده مسمرًا فوق الكرسي. كان العالم ضيقًا بالنسبة له آنذاك.

20

مرت فترة لم يرَ فيها بو مهدي سالم. كان لا يذهب لزيارته بالغرفة. وكان سالم قد افتتح معرضه منذ أيام، غير أن الصحف لم تتكلم عنه. ترى هل كان غير مفهوم؟ إن سالم لا يستطيع أن يفهمه أحد إلا إذا عرفه عن قُرب، في حياته الخاصة.

في تلك الظهيرة فكَّر بو مهدي في زيارته. كان يعرف أنه لا يذهب إلى المديرية العامة في ذلك الوقت.

عندما ذهب التقى صورة الصبية الضاحكة في الجدار.

كانت تنظر إليه كأنها افتقدته منذ سنوات. وكان سالم

غارقًا في القراءة وأكد له أنه كان يتوقع زيارته، خصوصًا وأنه لم يره منذ مدة.

21

- سالم، ألا تعرف النبأ الأخير؟

- لا. أي نبأ؟

- نانسي؟

- ما لها؟

- لقد اعترفت لي بأنها قد تكون محبة للرجل المتزوج وقد لا تكون. وقالت إنها تؤمن بالحرية الجنسية.

- إنها ساقطة. ألا تعتقد ذلك؟

- لا أدرى. ولكنها كانت تجئ إلى الغرفة لتبيت هنا.

- منذ أن افتتحت المعرض.

- نعم. وأؤكد أنها التي راودتني.

أحسّ بو مهدي بشيء. وكانت النافذة تفتح فاها. والسماء كانت تبدو له صفحة صمّاء باردة. ثم تأثر كثيرًا لأنه كان يعتقد أنها تبادله بالخصوص شعورًا ما.

وبحركة آلية وضع يده على أرنبه أنفه. لبث صامتًا كحجر. صامتًا كأزل. صامتًا كمدى.

نهض سالم وذهب إلى الجاكيت المعلقة بأكرة النافذة. وجذب منها علبة سجائر. عاد إلى الخلف وقدّم سيجارة لبو مهدي ولم يشعلها له. تمشي قليلاً في الغرفة. ووقف بقامة أسطورية في وجه النافذة. نفث كمشة من الدخان في وجه الفضاء.

عاد بو مهدي مطرقًا ويده خلف ظهره.

قال في النهاية:

- لماذا تتغير سحنتك؟ هذه أشياء عادية.

-كنت محتاطًا ولكني في النهاية انهرت.

- يجب ألا تفعل.

- هل تعتقد أني أقدر؟

- أنت قوي.

صمت.

«لا فرق بين ليلى ونانسي».

اتجه سالم إلى النافذة مرة أخرى. لبث برهة متكئاً عليه. ثم غيّر وضعه وتوجه إلى بو مهدي قائلاً:

- هل تعتقد أن هناك فرقًا؟

انتفض بو مهدي من مكانه كطائر مفزوع. اتجه بسرعة وانفعال إلى الباب. ثم، في النهاية، تسمّر واقفًا بالباب. رجع خطوات إلى الخلف. توجّه إلى النافذة بطريقة من سيتحر. أخذ ينظر إلى البنايات والطريق الذي يبعد عن عينيه بأمتار. كانت سحائب من الضباب أمامه. لم يكن يبقي ولكنه لم يكن يري بوضوح. كل شيء اتخذ له لونًا رماديًا غامضًا. وأحسّ أن هذه تجارب عنيفة يجتازها. ثم غادر النافذة. وقف في وسط الغرفة. ووضع يده لعى حافة الطاولة. أخذ ينظر إلى سالم. كان هذا الأخير يجلس على السرير وفي عينيه أشياء بلا تعبير. ربما.

- يبدو أني سأتركك الآن.

- هل تعود مساء؟

قال ذلك ولم يرفع إليه عينيه، بل كان ينظر إلى بلاط الغرفة بين قدميه. لم يستطع بو مهدي أن يقول شيئًا. فقط، توجَّه إلى الباب فى حالة مؤسية. كانت موسيقى تنبعث في داخله. قطعة من البلوز تذكرها الآن وكان يحبها.

أمريكيون سود في أعماقه .

في الشارع كان يتوه وحده. في اتجاه غير معين. يداه في جيوبه. وهو يفكر في أشياء. من جملتها ليلي ونانسي وأخريات.

أرصفة وجدران

رواية

محمد رزوق

"و مدّ لها يده دون أن ينبس بكلمة . و أطلق خطواته. و مضى في اتجاه القطار. أما نانسي فقد حوّلت اتجاهها نحو الجهة المعاكسة . التفت لفتة أخيرة فوجدها تنظر إليه . كان جسمها الرائع يوغل في الاختفاء . و في زاوية الشارع كانت قد غابت . و لم يكن يصدّق عينيه. نانسي إلى اللقاء. و كان القطار يصفر صفيره المعهود . و هو يصعد درجات سلم القطار . و في رأسه كانت هناك أفكار تعلو و تهبط في احتداد "نانسي" جميلة .. نانسي رائعة ... إلخ إلخ ."

الغلاف حسين جميل

رؤية R

9 789774 990694